روايات مصرية للجيب

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

42

الغامض

قصص أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

• مع دخول القرن الواحد والعشرين .

• مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب .

• مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..

• مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..

• إلى الحضارة ..

• إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..

د. نبيل فاروق

ستة أسطر

(قصة قصيرة)

لست أدرى ماذا أفعل ..

صديقتى العزيزة تركتنى ، وخاصمتنى ، وترفض التحدُّث إلىَّ بكلمة واحدة ..

كلمة واحدة ، هى كل ما أنشده منها ..

كلمة سماح ..

وغفران ..

ولن أحاول أن أتظاهر بالبراءة ، أو أدعى حتى إننى كنت على حق ، فأنا نفسى لم أعد واثقة من هذا بعد الآن ..

لم أعد واثقة من أى شىء ..

وفى كل صباح ، وبعد أن أحاول عبثًا الاتصال بها ، أجلس صامتة ، فى شرفة منزلى الصغير ، وأسترجع سبب ذلك الخلاف والخصام ..

وكم يدهشنى ويؤلمنى الآن ، أن أدرك أن سر المشكلة كلها يكمن فى ستة أسطر كتبتها فى لحظة غضب ..

ستة أسطر لا غير ..

ولكى تفهموا الأمر ، دعونى أبدأ من مرحلة مبكرة ..

منذ عرفت صديقتى لأول مرة ..

كانت تعمل فى وظيفة جيدة ، فى شركة كبيرة ، تعدّ مطمحًا لكل خريج جديد ، عندما قدمت أنا طلبًا للتعيين فيها ..

الذى اعتدناه ، فى تلك الفترة ، هو أن العاملين فى الشركات الكبرى ، يحاولون دومًا وضع عقبات وعثرات فى طريق أى متقدّم جديد ، لشغل وظيفة شاغرة ..

ربما لأنهم يخشون المنافسة ، أو لأنهم يميلون إلى الاستئثار بكل الامتيازات ، التى يمنحهم إياها العمر ..

ولكن تلك الصديقة كانت تختلف ..

فما أن اختبرتنى ، وأدركت أننى كفء للوظيفة ، حتى آزرتنى ، ووقفت إلى جوارى ، وكتبت بنفسها تقريرًا رائعًا ، لتؤيد حصولى على الوظيفة ، التى أحلم بها منذ فترة طويلة ..

وحصلت بالفعل على الوظيفة ..

وشعرت بامتنان شديد تجاهها ، جعلنى أرتبط بها لبعض الوقت ، كما لو أنها شقيقة كبرى ، وظلت هى تعاملنى من هذا المنطلق ..

وربما حتى أيام قليلة ..

ودعونى أعترف هنا ، أن تفوقى فى وظيفتى الجديدة ـ واعتراف الكل بهذا ـ قد ولّد فى نفسى شعورًا عجيبًا ، بدأ برغبة عارمة فى التنافس معها ، وإثبات أننى الأفضل ، والأكثر براعة وذكاءً ، ثم لم يلبث ، مع استمرار نجاحها ، وعلاقتها الحسنة بالجميع ، أن تحوّل إلى غيرة غاضبة ، وإحساس مرضى ، بأننى أفضل منها بالفعل ، ولكنهم لا يدركون ..

ولأن مشاعرى تجاهها قد اتخذت منحنى شديد الحساسية ، أصبحت لا أحتمل أى نقد توجهه إلىّ ، وأتصوّر دومًا أنها تبادلنى عداءً بعداء ، على الرغم من أنها لم تبدِ لمحة واحدة من هذا ..

ولكن تبًا لمشاعر الغضب ، التى تدفعك دومًا إلى إساءة تفسير كل موقف أو قول ، يصدر عمن يغضبك ..

فصديقتى ، على الرغم من دماثة خلقها ، شديدة الصرامة والحزم فى العمل ، وترفض الاستهتار والتهاون ، أيًا كانت أسبابهما ، حتى إنها ذات يوم ، فوجئت بأن المكتب قد تحوّل إلى نقطة لقاء ، يجتمع فيها الكل ، ليتسامروا ويتضاحكوا ، دون الانتباه إلى ما يسببه هذا من خلل ، فى مسار العمل ككل ..

لذا ، وبكل صرامة ، رفضت هى هذا ، وطلبت من الكل إنهاء هذا العبث ، ومنعتهم من الحضور إلى المكان ، إلا بدواعى العمل ..

وتصادف أن كنت مدعوة إلى ذلك الاجتماع ، فى نفس اليوم ، الذى أصرت هى فيه على فضه ، فتعاظم الأمر فى نفسى ، وصوّر لى غضبى أن قرارها موجه إلىّ شخصيًا ، وليس للمبدأ نفسه ، فتضاعف غضبى منها وحنقى عليها ألف مرة ..

وهكذا مضت الأيام والأحداث ، وأنا أرصد كل حركة ، وكل كلمة ، وكل موقف ، وأتعامل معها هى بالذات بحساسية فائقة ، وروح عدوانية ، ليس لها ما يبرّرها ..

حتى جاءت الفرصة المناسبة ، لتوجيه صفعة قاسية لها ..

فلسبب ما ، ثار خلاف عنيف ، بينها وبين صاحب ومدير الشركة ، وراح يتزايد بسرعة ، لعنادها وعناده ..

وهنا ، تجمع كل الغضب والمقت فى أعماقى ، وأثمر عن نشرة صغيرة ، طبعتها بنفسى ، وعلقتها فى لوحة الإعلانات بالشركة ..

نشرة من ستة أسطر فحسب ..

ستة أسطر ، قلت فيها إننى ابنة الشركة البارة ، وإنه لاكيان لى خارجها ، وإننى لن أختلف معها أبدًا ، بعكس ما فعله الآخرون ، الجاحدون للجميل ..

لم أكتب اسمها صراحة ، إلا أن كل من قرأ المنشور ، الذى حمل توقيعى ، أدرك أننى أعنيها هى بالتحديد ..

وكم كانت دهشتها عندئذ !

لقد بدت أشبه بالمصدومة ، وهى تتساءل : لماذا فعلت هذا ، على الرغم من أن الخلاف ، بينها وبين المدير ، لايمسنى شخصيًا ، بأى حال من الأحوال ..

العديدون أيضًا تساءلوا فى حيرة عن الأمر نفسه ، وآخرون رأوا أننى على حق ، وانقسم موظفو الشركة ، بين مؤيد لما فعلته ، وغاضب منه ..

وكان من الطبيعى أن يسألها البعض عن رأيها ..

ولكننى كنت شديدة التحفز ..

غضبى ومقتى أعمياني عن حقيقة واضحة ، ألا وهى أننى أنا التى أطلقت الرصاصة الأولى ..

ولكننى لم أكن أريد منها حتى حق الدفاع ..

كل كلمة قالتها ، ردًا على رصاصتى الأولى ، اعتبرتها أنا سببًا وقذفًا فى حقى ، وفرصة لإشعال النيران أكثر ، وأكثر .. وأكثر ..

وأبدًا لم أحاول الاعتراف بأننى أشعلت معركة ، وأن كل معركة تنطلق القذائف فيها فى الاتجاهين ، وليس فى اتجاه الخصم فقط ..

ومع مرور الوقت ، راحت نقمتى تفصح عن نفسها أكثر ، وتحوّل لوح إعلانات الشركة إلى ساحة قتال ، اتهمتها فيها بانعدام المصداقية ، وشككت فى كل ما فعلته أو قالته ..

بل وحاولت أن أظهرها أمام الآخرين بصورة حقيرة ، لاتستحق سوى الازدراء والرفض ..

وتماديت ..

وتماديت ..

وتماديت ..

ثم قرّرت هى إنهاء معركتها معى ، بأى ثمن كان ..

وفى لوحة الإعلانات ، ولأوّل مرة ، كتبت هى مذكرة ، تفسر فيها موقفها ..

وأثارنى هذا أكثر وأكثر ، وعدت أهاجمها ، قائلة : إن هجومها علىّ غير منطقى ؛ لأن كل ماكتبته عنها كان ستة أسطر فحسب ..

ولم تجب هى على قولى هذا ..

وعن لسانها ، وصلتنى رسالة شفهية ، تقول : إن العبرة ليست فى عدد الأسطر أو كمياتها ، فالسباب كلمةَ واحدة ، ولكنها قد تؤذى مشاعر المرء بأكثر مما يفعل مقال كامل ..

العبرة إذن بمن بدأ الحرب ..

ولماذا ؟!

كان هذا آخر ما وصلنى منها ، وآخر لقاء لى معها ، قبل أن تنصلح الأحوال ، بينها وبين المدير ، ويعود كل شىء إلى مجراه ..

وأعترف أن هذا قد أغضبنى فى البداية ؛ لأنها ستستعيد مكانتها وستفقدنى المبرِّر القتالى الوحيد ..

ثم إن ما يقلقنى هو : كيف سألتقى بها بعد هذا ؟!

كيف سنعمل فى مكتب واحد ، بعد أن أفصحت عن مقتى وكراهيتى وغضبى على هذا النحو ؟!

إنها لن توجِّه إلىَّ عتابًا واحدًا ؛ لأنها لم تعتد أن تفعل ، ولكننى واثقة من أن الصداقة لن تعود أبدًا ..

هذا لأن الصداقة ترتبط دومًا بالاحترام ..

وأظننى فقدت الاثنين فى نظرها ..

فماذا أفعل ؟!

أخبرونى باللّٰه عليكم .

* * *

(تمت)

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

طب ليه ؟!

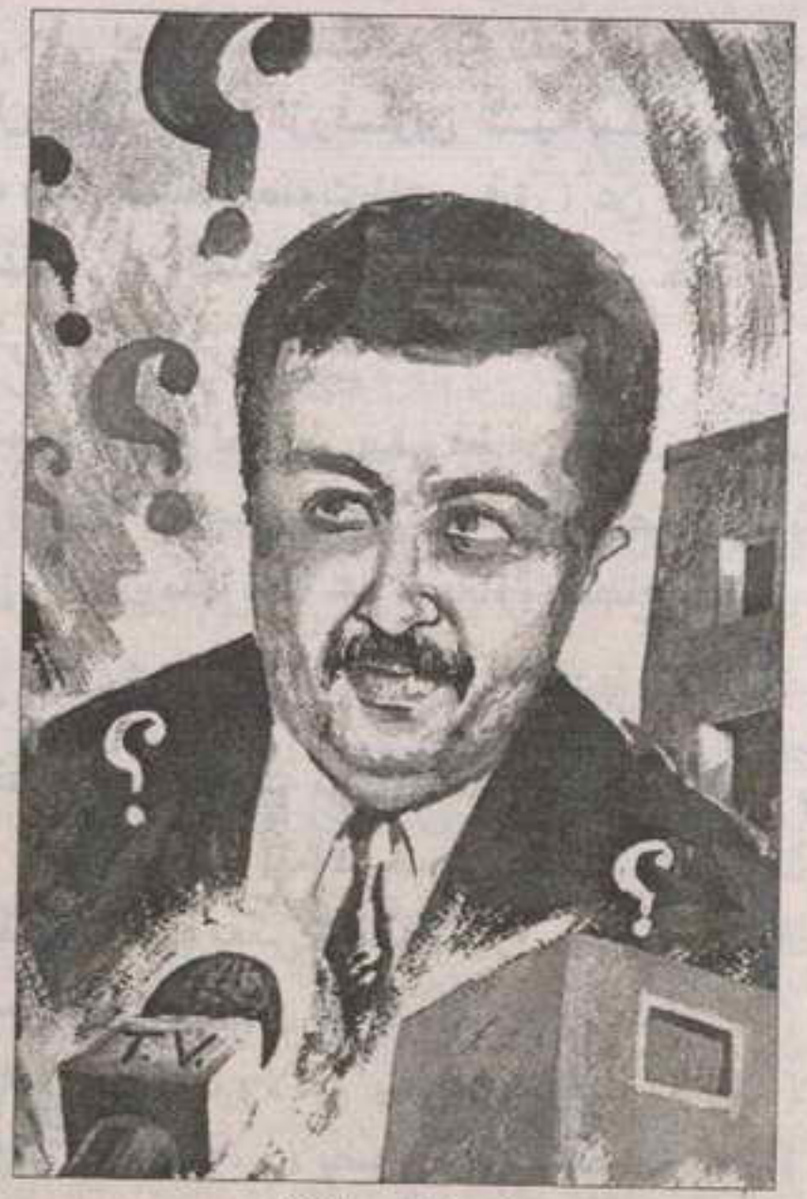

(مذكرات)

١ ـ السـؤال ..

ارتسمت ابتسامة جميلة ، على شفتى المذيعة الفاتنة ، أثناء لقاء تلفزيونى ، فى إحدى المحطات العربية الفضائية ، وبدت عيناها الواسعتان ، بعدستيهما الزرقاوين أشبه ببحر من الفضول الناعس ، وهى تسألنى بصوت ناعم رقيق ، عن المعاناة الشديدة التى واجهتها ، عن قصة كفاحى المضنية ، التى جعلت منى كاتبًا معروفًا إلى حد ما ، فى أوساط الشباب العربى ..

ومع سؤالها ، الذى لم يخطر ببالى قط من قبل ، رحت أستعرض فى ذهنى بسرعة ، تفاصيل حياتى ، ونشأتى ، وصباى ، وشبابى ، وأنبش فى كل ركن منها بحثًا عن المعاناة ، والكفاح ، والذى منه ..

ولكننى فشلت تمامًا ..

ربما كانت فى حياتى كومة من المتاعب والمصاعب ، التى يواجهها فى المعتاد أى شاب مثلى ، نشأ فى أسرة متوسطة بسيطة مترابطة ، لا هى بالفقيرة ، بحيث يعانى شظف العيش ، وينحت فى الصخر ؛ ليؤمن لنفسه سبل العيش ، أو يقضى لياليه فى الاستذكار على مصباح الغاز ؛ ليواصل دراسته ، ولا هى بالثرية المرفهة ، بحيث لا يحتاج إلى الكفاح من الأساس ، ولا يضطر أبدًا لمواجهة معاناة شديدة وقاسية ، أو حتى ضعيفة وهادئة ..

وهناك أيضًا مجموعة من المصادفات ، التى حفرت بصماتها على حياتى ، بعضها غيّر مسارها كله ، والبعض الآخر عدّل من أخطائها ، أو صنع فيها أخطاءً جديدة وكبيرة ..

ولكن لا معاناة شديدة ..

أو كفاح شاق ..

أو صراع للبقاء ..

وبكل بساطة ، وعن اقتناع تام ، وأمام عدسات التصوير ، أجبت المذيعة الفاتنة بما توصّلت إليه ، وبأن حياتى كانت أكثر بساطة ، و ...

وانقلبت ملامح المذيعة الأنيقة تمامًا ، وازدادت عيناها الجميلتان اتساعًا ، وبدت عدستاهما الزرقاوان الصناعيتان أشبه ببحر من الارتياع والذعر والاستنكار ، وهى تهتف داعية المصورَ للتوقف ..

وأعترف أن الدهشة قد أصابتنى بحق عندئذ ، وأننى تصوَّرت ـ لحظتها ـ أن لسانى قد زل ، دون أن أنتبه ، أو أننى قد نطقت لفظًا خارجًا ، على نحو أو آخر ، مما يستحق ذلك الهلع ، والذعر ، والارتياع ..

ثم أفهمتنى المذيعة ذلك الخطأ الفادح ، الذى وقعت فيه دون قصد ..

فمن العار ، كل العار ، بالنسبة (للست) المذيعة ، ومعد البرنامج ، ومخرجه المحترم ، أن أجيب بالحقيقة وأن أخبر المشاهد أن نجاحى المحدود ، فى مجال الأدب ، لم يرتبط بقصص كفاح عنيفة أو مضنية ..

فمن وجهة نظرهم جميعًا ، ينبغى أن أنسج قصة كفاح تسيل لها الدموع وحدوتة معاناة يتمزق لها الوجدان ؛ حتى ينتشى المشاهد ، ويستمتع ، ويدرك أنه ما من حلاوة بدون نار ، و ... ، و ... ، و ...

ورفضت تمامًا تلك النصيحة النمطية ..

رفضتها بكل عناد وإصرار ..

وبكل (رخامة) أيضًا ..

فالثقة التى حرصت على بنائها ، وتوطيد أواصرها لسنوات وسنوات ، بينى وبين القارئ ، وإصرارى على التعامل معه دومًا ، بكل الصدق والصراحة والوضوح ، لم تعتمد أبدًا على قصة كفاح زائفة ، أو ملحمة معاناة كاذبة ..

ولم تقتنع المذيعة الفاتنة ..

ولم يقتنع المعد أو المخرج ..

ولم أقتنع أنا أيضًا ..

وأمام إصرار الجميع ، تم إلغاء السؤال كله من اللقاء ، وحذفه من مضبطة الجلسة تمامًا أيضًا ، حتى لا يصبح عارًا على حياتى ومستقبلى فيما بعد (من وجهة نظرهم طبعًا) ...

وفى نهاية اللقاء ، وبعد أن توقف التسجيل ، وبينما (نلملم) أوراقنا ، استوقفتنى المذيعة ، ونصحتنى أن أعيد التفكير فى الأمر مستقبلاً ، حتى لا أفقد احترامى أمام القارئ ، إذا ما تصور أن وصولى إلى ما أنا عليه ، اعتمد على المصادفة وحدها ..

وهنا هتفت ، وبكل دهشتى : « طب ليه ؟! »

لماذا ينبغى أن أكذب ، لأكتسب الاحترام ؟!

ولماذا لا يكون الوضوح والصدق ، هما السبيل إلى هذا ؟!

كانت هذه الأسئلة فى البداية ، إلا أنها بدت لى فيما بعد أسئلة نمطية تقليدية ، لن يفيد الجواب عليها ، فى قليل أو كثير ؛ إذ إنها

أقرب إلى القضايا الفلسفية الاجتماعية ، منها إلى أسئلة واضحة محددة ، تحتاج إلى إجابات علمية منطقية ، ومباشرة ..

ثم إن السؤال نفسه راح يكبر فى ذهنى ومعناه يتسع ..

ويتسع ..

ويتسع ..

فحياتى بالفعل تعتمد على مجموعة عجيبة من المصادفات ، التى قادنى تسلسلها إلى ما اختاره لى الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ فى لوح قدر مكتوب !!

طب ليه ؟!

لماذا وضعت تلك المصادفات نفسها فى طريق حياتى ؛ لتغير مسارى على هذا النحو العجيب ، الذى نقلنى من عالم الطب ، إلى عالم الأدب ؟!

لماذا ؟!

ففى حداثتى ، قرأت عبارة مأثورة ، لعالم شهير ، أثناء وصفه للتغيرات الجذرية ، التى قفزت بالعلم إلى مرحلة هائلة من التطور ؛ بسبب سقوط تفاحة عادية ، على رأس (إسحق نيوتن) ، لتدفعه إلى وضع قوانين الجاذبية الشهيرة ..

عبارة تقول : « الصدفة لا تأتى إلا لمن يستحقها .. »

وعلى الرغم من حداثة سنى ، عندما قرأت تلك العبارة ، فقد طورتها فلسفة خاصة فى أعماقى ، لأعتبر أن الصدفة لا تأتى إلا لمن يمكنه أن يستخدمها ، لمصلحة الدنيا والعباد ..

فهل يمكن أن ينطبق هذا على حالتى ؟!

هل يمكن أن تكون لما كتبته طيلة عمرى أية فائدة لعباد اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ؟!

أو حتى لبعضهم ؟!

هل يمكن أن تساعد كلمة واحدة ، من آلاف الكلمات التى كتبتها ، فى دفع مخلوق واحد إلى الخير ، أو الصلاح ، أو حب الوطن ، وتنفيذ تعاليم الخالق ـ عزّ وجلّ ـ ؟!

هل يمكن هذا ؟!

لو حدث هذا ، مع فرد واحد ، لكانت نعمة ما بعدها نعمة ، وهبة تستحق أن أسجد لله شكرًا عليها ، حتى آخر نفس يتردَّد فى صدرى ..

ولكن كيف أجد الجواب ؟!

وأين ؟!

أفى مراحل حياتى الأولى ، ونشأتى فى مدينتى (طنطا) ، أم فى مرحلة الصبا والشباب ، وصراعات الانتخابات الطلابية ، والجامعية ، أم فى مرحلة تفتُّح القلب للحب والهوى ، وليالى السهر والسهاد ؟!

أم أن الجواب يكمن فى مرحلة العمل ..

وحياة المستشفيات ..

وأعماق الصعيد ..

أم فى هذا كله ، فى وقت واحد ؟!

من العسير ، والعسير جدًا أن أجيب الآن ..

ينبغى إذن أن أستعرض معكم حياتى كلها ..

ومنذ البداية ..

لعل هذا وحده يجيب السؤال الحائر إياه ..

طب ليه ؟!

★ ★ ★

قطرة حب

(قصة قصيرة)

(نادر) ما زال يحاول الاتصال ...

يا للملل !

تصاعد ذلك الشعور بشدة ، فى أعماق (نرمين) ، مع رنين هاتفها المحمول للمرة الثالثة ، فى نفس اليوم ، وشاشته تحمل رقم هاتف (نادر) ...

حبيبها السابق ..

ذلك الحبيب ، الذى كانت رنة هاتفه تدق فى قلبها ، وتتراقص معها خلاياها وعروقها فى كل مرة تسمعها ، والتى كانت تنتظرها بكل شوق ولهفة ، منذ تفتح عينيها فى الصباح ، وحتى تغلقهما لتحلم به فى المساء ...

استعاد ذهنها تلك اللحظات القديمة ، ففجَّرت فى أعماقها حيرة عجيبة ، لم تكف لتجيب اتصاله ..

ولكنها عادت بذاكرتها إلى الوراء ..

إلى أعوام قليلة مضت ..

إلى ذلك اليوم ، الذى التقت به فيه لأوّل مرة ..

لاتستطيع أن تنكر ، حتى فى حالتها هذه ، أنها قد انبهرت به منذ اللقاء الأوّل ..

بل منذ اللحظة الأولى ..

انبهرت بعقله ، ورصانته ، وحنانه ..

وحتى بعيوبه ..

وهى التى سعت لمعرفته ..

وللاقتراب منه ..

فى البداية ، كان شديد الحذر فى ارتباطه بها ..

ولكنها كانت تمثل أجمل ما حلم به ، فى أية امرأة فى العالم ..

جميلة ..

ذكيـة ..

دافئـة ..

محبـة ..

حنون ..

ومتفهمة ..

ورويدًا رويدًا ، وجد نفسه يفكّر فيها ..

وينتظر لقاءها بلهفة وشوق ..

ومع حنانها ورقتها ، وبساطتها المتناهية ، سقط أخيرًا فى حبها ، حتى النخاع ..

ولقد شعرت هى بهذا ..

شعرت بحبه ، وإقباله ، ولهفته ..

وارتاح قلبها ..

وفرح ..

وانطلق ..

كان كلاهما معطاءً إلى حد انشغل فيه بإسعاد الآخر ، وتقديم الأفضل له دومًا ..

وعاشت أسعد أيام حياتها ..

وحياته ..

كلاهما كانا وكأنهما يعيشان فى شهر عسل دائم لاينتهى أو تفتر حماسته أبدًا ..

وفى كل يوم ، كان هو يغرق فى حبها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وكان عطاؤه يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

ولكن العجيب أنه لم يعد يسعدها ..

فمع بداية علاقتهما .. كانت تشعر أنها تمنحه مثلما يمنحها ، وتعطيه ربما أكثر مما يعطيها ..

ولكن كفة ميزانه بدأت تثقل ..

كان شديد السخاء والعطاء ، حتى إنها لم تعد تستطيع منافسته ..

أو حتى مواكبته ..

وعلى الرغم من أنه لم يطالبها مرة واحدة برد ما يقدمه لها ، إلا أنها بدأت تشعر بالتوتر ، كما لو أنها مدينة ، ولا تملك السداد ..

كان المفترض أن يغمر حبها كل المشاعر الأخرى ، فلا تشعر معه بتلك المنغصات ..

إلا أن هذا لم يحدث ..

شىء ما فى أعماقها ، جعل توترها يغلب حبها ، ويهزمه ، ثم يسيطر عليه تمامًا ..

وعندئذ ، انقلبت مشاعرها بغتة ..

لأول مرة ، بدأت ترصد عيوبه ونواقصه ، وتهمل مميزاته ومآثره ..

بل ، وربما راحت تضخم عيوبه ..

وتعظمها ..

وتغضب منها ..

ولأنها لم تعتد الشكوى ، فقد راح الغضب يتراكم فى أعماقها ..

ويتراكم ..

ويتراكم ..

ومع تراكمه ، كان من الطبيعى أن تتقلص مساحة الحب ..

وتتناقص ..

وتضمر ..

المشكلة أن حبه هو كان يمر بالعكس تمامًا ..

فلأنه لم يكن هناك ما ينازعه ، نما الحب فى أعماقه ..

وتعاظم ..

وتطوّر ..

وأصبح حبًا عظيمًا ، تعجز عن وصفه الكلمات ..

لم يعد يحبها فحسب ، وإنما يعشقها ، ولا يحيا أو يسعد إلا بوجودها فى الحياة ..

أما عطاؤه ، فراح يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

ولم يدرك أبدًا أن هذا العطاء المتزايد ، كان السبب الرئيسى فى نفورها من حبه ، ورغبتها فى الابتعاد عنه ..

وهكذا تحوّلا إلى نقيضين ، يسيران فى اتجاهين متضادين ..

ولولا بقايا من صداقة ، لانفصلت عنه منذ زمن طويل ..

ولكنها حاولت البقاء ..

والاستمرار ..

والاحتمال ..

إلا أن هذا كان يفوق طاقتها ..

وكان من الطبيعى أن ينتبه هو إلى هذا ..

انتبه إلى تباعدها ، وتوترها ، وعزوفها عن لقائه ..

وارتبك ..

الحب الكبير فى أعماقه حاول التشبث بها ، وروح العطاء التى خلق بها ، كانت تدفعه لمنحها حريتها ..

وحاول أن يبلغها هذا ..

وحاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنها لم تعد تجيب اتصالاته ، أو تمنحه فرصة لتوضيح وجهة نظره ، ورغبته فى تحريرها ..

وبكى قلبه بدموع من دم ..

ثم قرَّر أن يوقف اتصالاته بها ..

كان يؤمن تمامًا بالحكمة التى تقول : «لو أحببت شيئًا امنحه حريته ، فإما أن يعود إليك بإرادته ، أو إنك لم تكن تملكه أبدًا .. » وذلك الاتصال ، الذى أثار مللها ، كان اتصاله الأخير ..

ولكنها رفضت أن تجيب ..

أو تستمع ..

أو تفهم ..

ولم يعد أمامه سوى أن ينسحب ، فى ألم ومرارة وحزن بلاحدود .. ولكنه لم يكرهها ..

لم يكن من الممكن لكل الحب ، الذى احتشد فى كل ذرة من كيانه ، أن يتحوَّل ولو إلى لمحة واحدة من الكراهية ..

ولم تدرك هى هذا ..

فقط شعرت أنها قد تحرَّرت منه ، فانطلقت تحيا حياتها فى لهفة ، وكأنها تعوض ما ضاع منها فى أيام حبه ..

وكما يحدث دومًا ، كانت الانطلاقة فى بدايتها جميلة ..

ومنعشة ..

وجذابة ..

إلا أنه من الطبيعى ألا تدوم إلى الأبد ..

فمع أول لحظة هدوء ، وأول شخص بدا لها مناسبًا ، راح عقلها ، دون وعى منها ، يقارن ..

يقارن عطاءه هو ، بأنانية ذلك الشخص ..

يقارن حنانه ..

وحبه ..

وإخلاصه ..

وهنا فقط ، انتبهت إلى ما أضاعته من يدها ..

ومن حياتها ..

هنا فقط تساءلت : لماذا نبذت حبه وعطاءه إلى هذا الحد ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

إنه لم يعد يحاول الاتصال بها ، إلا أن عطاءه لم يتوقف ..

كان دائمًا هناك ، وراء ستار ما ..

مازال يمنحها رعايته ..

وعنايته ..

وحناته ..

ولكن ما يشغلها الآن هو : أما زال فى قلبه متسع لها ؟!

أما يفعله معها هو جزء من شهامته وكرم شخصيته فحسب ؟!
أم إنه مازال يحمل لها شيئًا ما ؟!

وعلى الرغم من أنها لم تجرؤ على الاتصال به ، ومحاولة إعادة المياه إلى مجاريها ، إلا أنها تمنت لو يفعل هو هذا ..

تمنت أن يتبقى لديه دافع واحد ، لتجاوز كرامته وذاته ، والقيام بالخطوة التى تتمناها ..

دافع واحد ، أو حتى قطرة ..

قطرة حب ..

واحدة .

★ ★ ★

بالفساد وحده

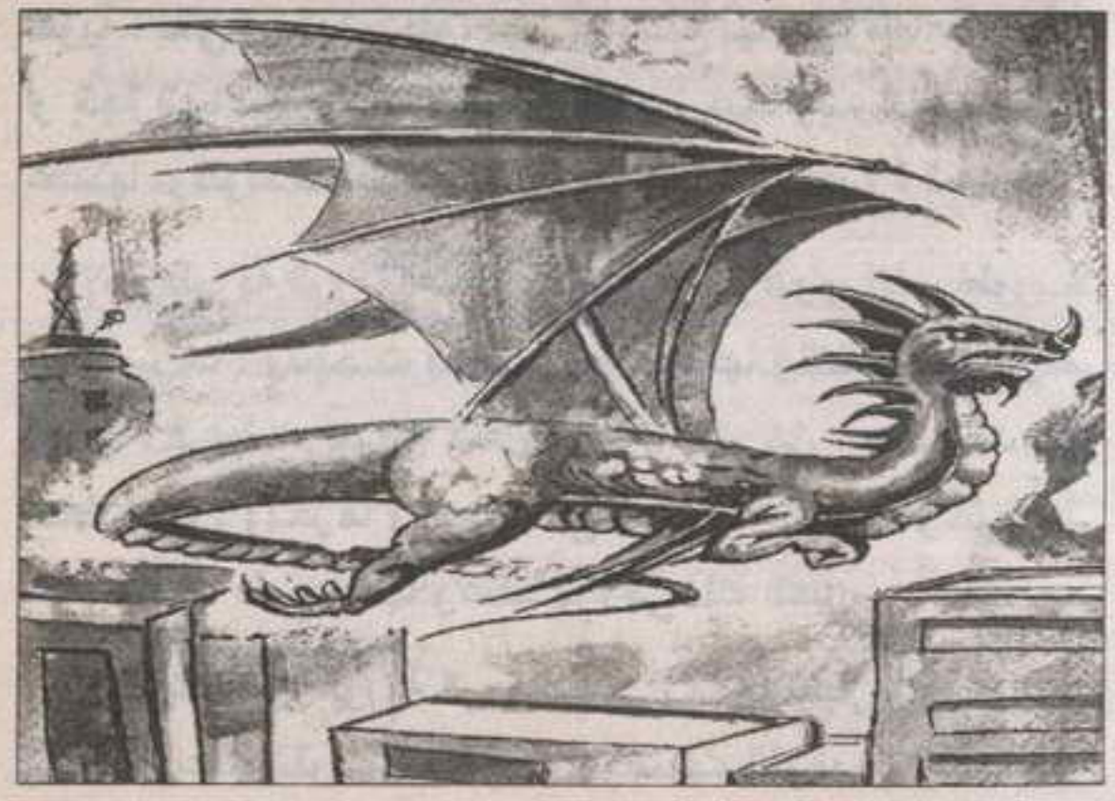

عبر صفحات التاريخ ، تطالعنا قصص لعشرات الحضارات ، التى سادت العالم يومًا ، وسيطرت على مقاليده ، وتربّعت على عروشه ، وهيمنت على ثرواته ..

وقصص عشرات الدول ، التى نجحت فى الخروج من أزماتها ، وكبرت وتعملقت ، وأصبحت لها جيوش جرّارة ، وقدرات جبّارة ، كادت تحتل بها مكانة عظيمة ، بين شعوب الأرض جميعها ..

لولا آفة واحدة ..

آفة رهيبة ، نمت داخلها ، وكبرت رويدًا رويدًا ، حتى تحوّلت من دودة صغيرة إلى ثعبان سام ..

ثم إلى تنين هائل ، ابتلع تلك الدول والحضارات ، ولاكها بين أنيابه القوية ، حتى سحقها سحقًا ، دون أن تشفع لها منجزاتها العملاقة ، أو إنجازاتها ، التى ملأت الدنيا صخبًا وضجيجًا وإسرافًا فى وصف عظمتها ، والفوائد المنتظرة منها ، ولاحتى جيوشها الجرّارة الجبارة ..

الإمبراطورية الرومانية مثلاً ، كانت أعظم وأقوى الإمبراطوريات فى عصرها ، ونجحت بتنظيمها وتنسيقها والنظام الديمقراطى داخلها ، فى بناء جيش هائل قوى ، هزم كل الحضارات التى أحاطت بها ، ودحرها وسيطر على العالم كله تقريبًا ، وحتى على مصر نفسها ، مع قوتها وعظمتها ، فى ذلك الحين ..

وأنجزت الإمبراطورية الرومانية فى زمانها الكبارى والجسور ، والمشروعات القوية العملاقة ، ووضعت القوانين والقواعد ، وكان لها مجلس شيوخ ، ومجلس نواب ، ونظم اقتراع مأمونة ومحمية ، إلى الحد الذى بهر العالم ، حتى صار أكثر ما يمكن أن يحظى به الشخص ، أى شخص ، هو أن يصبح مواطنًا رومانيًا ، يتمتع بكل مميزات الانتماء إلى إمبراطورية هائلة كهذه ..

ثم تسلل الفساد إلى الإمبراطورية العظيمة ..

بدأ فى أوله بين الطبقات القوية ، الحاكمة والمسيطرة على مقاليد الأمور ، والتى رأت فيه مصالحها ، ووسيلة لإحكام قبضتها ، ليس على المواطنين وحدهم ، ولكن على الدولة نفسها ..

ثم لم يلبث الفساد أن توغل وانتشر ، ولا أحد يستطيع الوقوف فى وجهه ، أو التصدّى له ؛ لأن الكبار يمارسونه ، ويؤيدونه ، ويسبغون عليه حمايتهم أيضًا ؛ باعتبارهم أصحاب السلطة والقوة والنفوذ ..

وأصحاب القانون كذلك ..

وبدلاً من محاربة الفساد ، الذى ينخر فى كيان الإمبراطورية ببطء ، انشغل الكل بمحاولة إخفائه عبر التشدّق بالمنجزات ، والتغنى بتاريخ الإمبراطورية ، وقوتها ، وسطوتها ، وأمجادها القديمة ، وانتصاراتها السابقة الساحقة ..

وفى سبيل هذا راحت الإمبراطورية الرومانية تستنزف طاقاتها فى قهر الفكر ، ومحاربة العقائد ، وخنق الآراء والانتقادات الحرة ، تاركة الفساد يستشرى ..

ويستشرى ..

ويستشرى ..

ثم صحا الكل فجأة على واقع ، لم يتخيّل مخلوق واحد ، فى العالم أجمع ، إمكانية حدوثه ، حتى فى أبشع وأسوأ الكوابيس ..

انهارت الإمبراطورية الرومانية بكل عظمتها ، وأمجادها ، ومنجزاتها ، وتاريخها العريق ..

انهارت ..

واندثرت ..

وضاعت ..

وانسحقت ..

ولم يتبق منها سوى أطلال ، وآثار ، وذكرى للمؤرخين ، والأدباء ، والفنانين ، والسينما ..

انهارت الإمبراطورية العظيمة ، وابتلع انهيارها ، أول ما ابتلع ، أولئك الذين كان فسادهم سببًا أساسيًا لما أصابها ..

وكان السقوط والانهيار مدويين ، أذهلا العالم أجمع ، على الرغم من ضعف وبطء وسائل الانتقال ، نسبة إلى زمننا هذا ، وعجز العديدون عن تصديق ما حدث ، لفترات طويلة تالية ..

ولكنه حدث ..

وبالفساد وحده ..

وكما يحدث دومًا ، تغير وجه العالم مع انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وظهرت قوة عربية إسلامية جديدة ، على أنقاض الحضارة الهاوية ..

قوة انتصرت عليها ، وهزمتها بإيمانها ونظامها ، وعقيدتها ، ثم انطلقت تشق طريقها فى كل اتجاه ..

توغلت فى إفريقيا ، وبلغت أخبار فتوحاتها الآفاق ، حتى وصلت إلى بلاد الأندلس ، وحققت فيها أعظم فتوحاتها وانتصاراتها ..

قرون وقرون قضاها العرب فى الأندلس ، وأصبحوا منارة علم لأوروبا كلها ، وكادوا يصبحون سادتها بلا منازع ..

لولا ما حدث ..

للأسف .

★ ★ ★

العرب أقاموا أعظم دولة عظيمة فى الأندلس ..

دولة أنارت أوروبا كلها ، بعلومها ، وفنونها ، وبالعدل العاقل الهادئ ، الذى كان أساس حكمها ، وقاعدة نشاطها وتطوّرها ..

ومن تلك الدولة ، انتشرت الحضارة فى أوروبا كلها ..

خرجت علوم وفلسفات جديدة ، أضاءت العقول والقلوب ، وبدأت عصرًا جديدًا من المعرفة ، لم يشهد التاريخ له مثيلاً ، فى العصور الحديثة كلها ، حتى أصبحت الأندلس قبلة لكل طالب علم ، أو باحث عن المعرفة ، أو فيلسوف يسعى للبحث عن الحقيقة ..

أية حقيقة ..

وفى ظل حكم مثالى كهذا ، ظهرت أنواع جديدة من الفنون ، والعلوم ، والآداب ، وتطوّرت المعارف القديمة ، وتعدّلت ، وتمكنت ، وبرزت ، وأصبح من الضرورى لكل دارس ، وكل باحث ، من أن يتعلّم اللغة العربية ، وأن يتقنها ؛ باعتبارها لغة العلم والفلسفة والحضارة ..

وكان من الممكن أن يستمر هذا للأبد ، وأن تظل الأندلس أعظم منارة فى العالم ..

بل وربما أصبحت سيدة النظام العالمى كله ، مع عجلة التقدّم والتطوّر ..

لولا تلك الآفة القاتلة ..

الفساد ..

فمع التفوّق والقوة والنجاح ، ينمو شعوران قويان ..

الزهـو ..

والاسترخاء ..

وفى أعماق الكبار يولد شعور مقيت بأنهم سادة ، لا أحد يملك لهم نفعًا أو ضرًّا ، وما داموا يحكمون فمن الطبيعى أن يتحكّمون ..

ومن هنا تبدأ الكارثة ..

تمامًا مثلما حدث فى الأندلس ..

الكبار بدءوا يتعاملون باعتبارهم فوق القانون ، ولهم الحـق فى أن يفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوا ، وأن يمنحوا ، ويهبوا ، ويمنعوا ، دون ضابط أو رابط ..

وليس على الشعب سوى السمع والطاعة ..

باختصار ، أصبح النظام فى الأندلس قائمًا على أن ينقسم المجتمع إلى فئتين ، لا ثالث لهما ..

السادة ..

والعبيد ..

وبعد أن كانت الأندلس مثالاً للعدل ، انتشر فيها الظلم ، وأطلّ منها الفساد برأسه ، ليجثم على نفوس الكل ..

وكما يحدث دومًا بدأ الفساد فى أوّله بين الطبقات القويـة ، الحاكمـة والمسيطرة على مقاليد الأمور ، ثم لم يلبث أن توغل وانتشر ، دون أن يجرؤ أحـد ، أو يستطيع مخلوق واحد الوقوف فى وجهه ، أو التصدّى له ؛ لأن الأمراء والأكابر كانوا أوّل من يمارسه .. ويؤيده ..

ويسبغ عليه القوة والحماية أيضًا ؛ باعتبارهم أصحاب السلطة والقوة والنفوذ ، والقانون ..

وبدلاً من محاربة الفساد ، الذى ينخر فى كيان الدولة العظيمـة ببطء ، انشغل الكل فـى التشدّق بـالمنجزات ، والتغنى بالتـاريخ ، والقوة ، والسطو ، ولأول مـرة راحت الأندلس تستنزف طاقتها فـى قهر الفكر ، ومحاربـة العقائد ، وتركت الفسـاد يستشـرى ، ويستشرى ، ويستشرى ..

سيناريو متكرّر ، انتهى بالدولة العظيمة إلى نهاية حتمية ، سئم التاريخ من تكرارها ، بنفس التسلسل ، دون أن يتعلم أحد ..

وانهارت الأندلس ..

سقطت الدولة العظمى ، وانطفأت منارة العلم ، وانخسفت دولة العرب فى أوروبا .. وأيضًا ..

بالفساد وحده ..

★ ★ ★

روسيا حالة فريدة فى سجل الفساد ..

ففى عهد القياصرة ، ساد الفساد وانتشر ، إلى الحد الذى زكم كل الأنوف ..

إلا أنوف القياصرة ورجال الحكم بالطبع ..

فكظاهرة عامة ، يبدو من الواضح أن رجال السلطة هم أول من يبدأ بالفساد ، سواء بشكل مباشر ، أو بسلبية مدهشة ، تبلغ حد الشك فى الذمم ، فى مواجهته ، والتعامل معه ، مما يكسبهم مناعة خاصة ، لا تبالى بعدها أنوفهم برائحته ، أو إنها تستسيغه فى الواقع ؛ لما يحمله من مكاسب ومنافع لطبقتهم بالتحديد ..

المهم أن الفساد قد استشرى وانتشر ، وبخاصة فى وجود ذلك الراهب الرهيب (غير المشلوح) راسبوتين ، الذى قلبها (ميغة) ، كما يقول أولاد البلد ـ لو أنه ما زال هناك أولاد بلد ـ وسيطر على الإمبراطور ، والإمبراطورة ، والأسرة الحاكمة ، ثم الإمبراطورية كلها فيما بعد ..

وكتداع طبيعى لانتشار الفساد ، وكقاعدة يدركها أى عاقل ـ فيما عدا الحكام طبعًا ـ قامت الثورة ..

والثورة فى روسيا لم تكن بيضاء ، ولم تدّع هذا ، وإنما كانت ثورة غاضبة من الفساد ، ناقمة على كل من أسهم فى وجوده وانتشاره ..

ومع الثورة البلشفية الروسية ، طارت آلاف الرءوس ، وانسكبت أنهار الدم ، وأغرقت البلاد من طولها إلى عرضها ، بطوفان من الغضب ، والانتقام ، والقتل ، والتنكيل ، قبل أن تهدأ النفوس وتستقر الأمور ..

وبدأت روسيا عهدًا جديدًا ، بفكر اقتصادى وسياسى مختلف ..

ولأن النظام كان مثاليًا للغاية ، على الورق فحسب ، فقد بدأ الانهيار يحدث رويدًا رويدًا ، دون أن تدرك السلطة نفسها هذا ، أو دون أن تعترف به ، لو شئنا الدقة والصراحة ..

وفى ظل هذا الانهيار المستتر ، والمستمر ، عاد الفساد يستشرى مرة أخرى فى روسيا ..

وخاصة بعد انتصارها فى الحرب العالمية الثانية ..

فقد تصوّر قادتها أنهم وحدهم صانعو النصر ، مما يمنحهم حق الاستثناء ..

والاستبداد ..

والسطوة ..

وكقاعدة أخرى ، تعلمنا أن الاستثناء هو الباب الإمبراطورى للفساد ..

وعلى الرغم من تآكل الاتحاد السوفيتى من الداخل ، ظلت واجهته الخارجية أنيقة مبهرة من الخارج ، فقد لحق بالولايات المتحدة الأمريكية ، فى السباق النووى ، وكاد يتفوق عليها فى سباق الفضاء ، وأصبح القوة الثانية والموازية ، فى مرحلة القطبين ..

ولكن كل هذا لم يُجد شيئًا ..

فبعد أكثر من سبعين عامًا من ثورتها ، سقطت روسيا مرة أخرى ..

وبالفساد وحده ..

انكشف المستور ، وانهار الغلاف الخارجى الأنيق ..

وسقطت روسيا ..

وفى هذه المرة كان السقوط مدويًا مذهلاً ..

لم تشفع لها مشروعاتها الضخمة والعملاقة ..

لم تنقذها أقمارها الصناعية ، ولا أسلحتها النووية ..

ولا حتى علاقاتها القوية بعشرات الدول ..

سقطت روسيا لأن حكامها تجاهلوا ما استشرى فيها من فساد ، وأغمضوا عيونهم عنه ، وحاولوا إقناع أنفسهم بأنه أمر جانبى ، لا ينبغى التوقف عنده ، وسط كل المنجزات الأخرى ..

التهم الفساد كل عظمة روسيا ، ومضغ أول ما مضغ أولئك الذين ساعدوه ، وحموه ، وسمحوا له بالتوحش والانتشار ..

والآن ، وبعد مرور سنوات على السقوط الثانى ، وعلى الرغم من كل المحاولات المستميتة لاسترجاع المجد القديم ، مازالت روسيا مرتعًا للفساد ، ومستنقعًا للجريمة والتسيب ..

وكل هذا بسبب الفساد ..

الفساد الذى كان أيضًا السبب الرئيسى لسقوط واحدة من أقوى الدول فى منطقتنا ، و ....

ولهذا قصة أخرى ..

★ ★ ★

إيران دولة قوية ..

أو إنها كانت كذلك فى عهد الشاه السابق ..

لقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضاربة ، تعد أكبر قوة فى المنطقة بأسرها ، وثروة بترولية ضخمة ، تؤهلها لأن تتبوأ مكانة رفيعة ، ليس وسط دول الأوابك وحدها ولكن وسط الدول العظمى أيضًا ..

وفى الداخل كانت هناك خطط طموحة ، ومشروعات كبرى ، وتطويرات مستمرّة مبهرة ..

ولكن كانت هنـاك دودة صغيرة تنخر فى كـل هذا ، دون أن يبالى بها أحد ..

دودة اسمها الفساد ..

والفساد يبدأ دومًا كدودة صغيرة ، وفى مستويات متوسطة ، لا هى بالمواطن العادى ، ولا بالمسئول الكبير ..

يبدأ من كبار صغار المسئولين ..

أو من صغار كبار المسئولين ..

ولكن المشكلة أنه شديد العدوى كالأوبئة ، وتنتشر عدواه دومًا من أعلى إلى أسفل ، وإلى أسفل السافلين أيضًا ..

ومع انتشاره يتحول من دودة إلى ثعبان أرقط سام ، يبلغ خانة كبار المسئولين فيصبح تنينًا ، يصعب التعامل معه ومواجهته ..

وتعالت الأصوات فى إيران تشكو من الفساد ، ومن انتشاره ، ومن سيطرته على مقاليد الدولة ، حتى صار من العسير أن يحصل المواطن العادى على حقوقه الطبيعية ، دون رشوة أو وساطة أو محسوبية ..

وتجاهل المسئولون تلك الأصوات ..

تجاهلوها ، وأغلقوا آذانهم عن سماعها تمامًا ..

ربما لأنهم لم يدركوا أو يتخيلوا حجم الفساد ..

أو لأنهم ـ وهو ما ثبت فيما بعد ـ كانوا جزءًا منه ..

أو كانوا قادته وزعماءه ، إن شئنا الدقة والصراحة ..

ولأنهم كذلك . لم يبلغوا تلك الأصوات للشاه أبدًا ..

وبالنسبة إلى جلالته ، كان كل شىء يسير على مـا يرام ، وكـانت كل الأصوات المعارضة حاقدة ..

ناقمة ..

فاسدة ..

وتسعى لتشويه صورة الحكومة الشريفة المخلصة فحسب ..

والكل كان مطمئنًا ..

فالدولة قوية ، وأجهزتها الأمنية صارمة ، قاسية ، لا ترحم ، وعلى رأسها (السافاك) ، الذى كان مجرد ذكر اسمه يلقى الرعب فى القلوب ..

والمسئولون الكبار كانوا مطمئنين ؛ لأن النظم الأمنية القمعية ستبطش حتمًا بكل من يجرؤ على الكلام ، دون رحمة أو شفقة ..

لذا فقد زاد الفساد أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وتجاهلته الدولة أكثر وأكثر ..

ثم حدث ما لم تتخيل الإمبراطورية الإيرانيـة حدوثـه ، مـع كـل قوتها ، وصرامتها ، وأجهزتها الأمنية الباطشة ، القامعة ..

الثورة ..

اندلعت الثورة على الفساد ، الذى لم يعد الشعب يطيقه أو يحتمله ..

اندلعت فجأة ، على الرغم من وجود قوة الأجهزة الأمنيـة ، والقمعية ، والرقابية ، وكل الأجهزة الأخرى ..

وحتى مع اندلاعها ، لم يتصور الكبار إمكانية نجاحها ، مع كل ما لديهم من قوى ..

تصوّروا أنها مجرد (هوجة) ، لن تلبـث أجهزتهم أن تسيطر عليها ، وتسحقها ، تعود الأمور إلى ما هى عليه ..

ولكن مشكلة الفساد ، هى أنه يمتد دومًا إلى كل شىء ..

وبلا استثناء ..

وحتى إلى أجهزتهم نفسها ..

وانهارت الإمبراطورية الإيرانية ، وانهار معهـا أربـاب الفسـاد وصانعوه ..

بل وتدلت أجسادهم من حبال المشانق هناك ..

ولم ينج منه سوى الشاه نفسه ، الذى راح يبحث عن دولة تؤويه ، حتى جاء ، ومات فى مصر ..

خسر مملكته ، وحكمه ، وقوته ، وسطوته بالفساد ..

بالفساد وحده ..

* * *

ثورة يوليو ١٩٥٢م قامت لتحارب الرشوة والفساد والمحسوبية ..

وفى البداية كانت الثورة نقية ..

طاهرة ..

تسعى بالفعل للإصلاح ..

وكان من الممكن أن تصبح أعظم حدث فى المنطقة كلها ، بفضل منجزاتها ، وإنجازاتها ، ونظرتها الطموحة للمستقبل ..

لولا الفساد ..

والعجيب أن الفساد ، الذى جاءت الثورة لتحاربه ، كان بعد الثورة ألف ضعف للفساد قبلها !!

وخاصة بعد تكميم الأفواه ، والرقابة على الصحـف ، ونظريـة حكم الفرد ، التى تعتبر كل من يخالفه الرأى مارقًا خائنًا ، يستحق الموت بلا رحمة ، أو التعذيب بلا حدود ..

وفى ظل هذه السياسة الرشيدة ، ظهر الفساد ..

ونمـا ..

وكبر ..

وتضخم ..

وتحوّل إلى وباء رهيب ، انتقلت عدواه إلى كل شىء ..

حتى القوات المسلحة نفسها ..

ولكن الحكومة لم تبال أو تهتم ؛ لأنها هى صانعة الفساد ومباركته ..

ثم إن لديها أجهزة قمعية قوية ، يكفى أن يتفوّه المرء بحرف عنها ، أو عن الحكومة ، أو حتى يلقى نكتة للترويح عن نفسه ، لتنقلب الدنيا على رأسه ، وتعتقله الأجهزة الأمنية ..

وتضربه ..

وتعذبه ..

وربما حتى الموت ..

وأصبح الناس يرون الفساد ويعانون منه ، ولكن أحدهم لايجرؤ على الشكوى منه ، أو الاعتراض عليه ، أو حتى الحديث عنه ..

ولكن التاريخ علمنا أن الفساد يأتى بالخراب دومًا ، ومهما كانت الاحتياطات .. فبعد أن اطمأنت الحكومة إلى إحكام قبضتها البوليسية على الشعب والدولة ، وتصوّرت أنها قد صارت بمعزل عن الخطر ، أتتها الضربة من حيث لاتحتسب ..

هزيمة رهيبة ..

نكسة مروعة ..

ودمار شامل لم تعرف مصر له مثيلاً ، فى أى عهد من عهودها قط ..

وهنا ، هنا فقط بدأت الدولة حربًا طاحنة ضد الفساد ، الذى لو بذلت عُشْرَ هذا لمواجهته بحق ، لما جاء الخراب والدمار والعار والهزيمة ..

وعندما حاربنا الفساد ، انتصرنا ..

وعبرنا ..

وارتفع علمنا عاليًا خفاقًا ..

وكان ينبغى أن نستوعب الدرس ونفهمه ، وأن ندرك أنه مهما أنجزنا ، ومهما طوّرنا ومهما كانت لدينا مشروعات كبرى ، وطموحات عظيمة ، وخطط مبشرة فلن يمكننا أن ننتصر أبدًا ، لو لم نحارب الفساد ..

وبمنتهى العنف ..

ولكن من الواضح أننا لم نتعلم ، ولم نفهم ، ولم نستوعب الدرس أبدًا ..

لذا فالدولة تتحدث دومًا عن الإنجازات ، والطموحات ، والخطط المستقبلية ، ولكنها ترفض الاعتراف بالفساد ، الذى انتشر ، وكبر ، وتعملق ، وصار أكبر خطر نواجهه ، فى المرحلة الحرجة المقبلة ..

الفساد هو الذى يرفع أسعار السلع ، التى يضاف إليها ، مـا يدفعه الصانع من رشاو وإكراميات ، تتجاوز كل الحدود ، حتى لاتعود السلعة صالحة للمنافسة ، أو قادرة على الصمود ، أمام المنتج الأجنبى ..

الفساد هو الذى يجعلنا غير قادرين على المواجهة ..

على المنافسة ..

أو حتى على الصمود ..

الأحوال تتدهور عالميًا ، واقتصاديات الدول لاتصمد بالمجاملات والنفاق وتجميل الصور ..

وكما علمنا التاريخ ، لن يمكننا أبدًا أن نتجاوز المرحلة القادمة ، وأن نعبر منحنى الخطر إلا بالواقعية والمصارحة ..

وبالمواجهة الصريحة المباشرة مع الفساد ..

الفساد .. الفساد .. الفساد .. الفساد ..

ألف مرة ..

وهذا قبل أن تنقض علينا هزيمة أخرى ..

أو ثورة ..

اللهم قد أبلغت .. اللهم فاشهد ..

★ ★ ★

روايات مصرية للجيب
كوكتيل ٢٠٠٠
المشهد الأخير
قصة كاملة
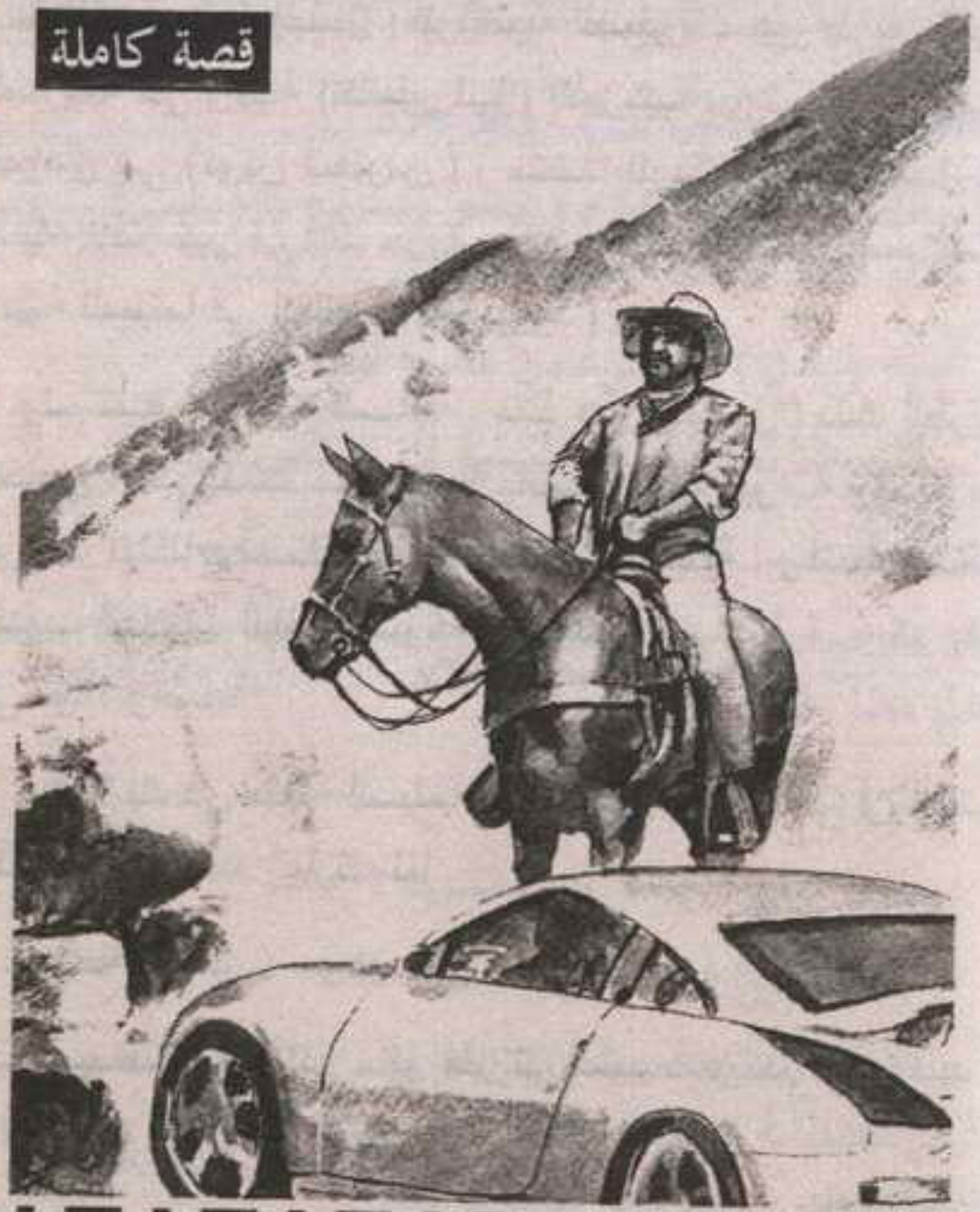

المشهد الأخير

(قصة كاملة)

انطلقت سيارة (باسل) الرياضية الصغيرة ، عبر طريق القيادة السريعة فى ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية ، وتجاوز الطريق المؤدى إلى (لوس أنجلوس) ، متخذًا طريقًا خاصًا ، حمل فى بدايته لافتة كبيرة ، ذات حروف بارزة ضخمة ، تحمل اسم أشهر مدينة للسينما فى العالم .. (هوليوود) ..

ولم تمض نصف الساعة ، منذ عبر (باسل) ذلك الطريق الخاص ، حتى كانت سيارته الرياضية تجتاز بوابة واحدة من شركات الإنتاج الضخمة ، ذات الشهرة العالمية ، وهناك استقبله مندوب العلاقات العامة للشركة ، وصافحه فى حرارة ، وهو يقول فى مودة واضحة :

ـ أهلاً بك فى مدينة السينما يا (باسل) .. أتمنى أن تمضى وقتًا ممتعًا ، أثناء زيارتك لنا .

صافحه (باسل) ، وهو يقول :

ـ سيسعدنى هذا أكثر ، لو أخبرتنى سبب دعوتكم لى يا سيد ..

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ (برنارد) .. الأصدقاء ينادوننى (برنى) .. وأنا مسئول العلاقات العامة هنا .

قال (باسل) :

تشرفنا يا سيد (برنى) .. ولكن هذا لم يجب عن سؤالى بعد .

ضحك (برنى) فى مرح ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنك حازم ومباشر وصريح يا (باسل) .. ومن الواضح أيضًا أنك تحب دائمًا معرفة موضع قدميك .

أجابه (باسل) فى شىء من الضجر :

ـ أظن هذا الأمر طبيعيًا بالنسبة لأى شخص طبيعى .

ربَّت (برنى) على كتفه فى حرارة ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح ، ونحن نحتاج إلى هذه الصفة بالضبط ، عندما تعمل معنا هنا .

هتف (باسل) فى دهشة :

ـ أعمل معكم ؟! ماذا تعنى بالضبط ؟

أجابه (برنى) فى حماس :

ـ الواقع أننا نستعد الآن لإنتاج فيلم سينمائى ضخم ، حول تاريخ المنطقة العربية ، ونحتاج إلى مستشار عربى ، لتأكيد واقعية الفيلم .. ولقد وقع اختيارنا عليك .

قال (باسل) فى دهشة :

ـ ولماذا أنا بالذات ؟

أجابه (برنى) مبتسمًا :

ـ لقد قرأنا مقالاً لك ، تقول فيه :

إن كل ما أنتج عن المنطقة العربية لا يمت بصلة لواقعها وتاريخها ؛ لأن أحدًا من المنتجين لم يجشم نفسه مشقة البحث والدراسة ، قبل إنتاج الفيلم .. وأصارحك القول .. إنك على حق .. إننا لم نقرأ أو ندرس جيدًا ، بالنسبة لهذه النوعية من الأفلام ، ولهذا قررنا الاستعانة بخبير مثلك .

بدت الدهشة أكثر على وجه (باسل) ، وهو يقول :

ـ خبير مثلى ؟! ولكننى لم أعمل قط فى مجال السينما .

هتف (برنى) فى حماس :

ـ ولكنك خبير فى شئون وتاريخ العرب .. أليس كذلك ؟

فتح (باسل) شفتيه ، وهمَّ بمناقشة هذا الأمر ، إلا أنه فوجئ بالسيد (برنى) يقفز جانبًا ، ويهتف :

ـ احترس .

استدار (باسل) فى سرعة ، واتسعت عيناه فى دهشة ..

كان هناك فارس من رعاة البقر ، على متن جواد بنى داكن ، ينقض عليه بسرعة كبيرة ، وهو يدير أنشوطته فى الهواء ، ويطلق صيحات قوية ..

وبوثبة رائعة ، عبر الفارس وجواده سيارة (باسل) الرياضية ، ثم ألقى الفارس أنشوطته نحو (باسل) ، هاتفًا فى سخرية :

ـ هناك صيد جديد .

كان الفارس ماهرًا فى استخدامه أنشوطته بالفعل ، ولكن (باسل) أيضًا كان ماهرًا فى تفادى مثل هذا الهجوم ، مهما كانت درجة المفاجأة ؛ لذا فقد وثب جانبًا فى خفة ، ومال متفاديًا حلقة أنشوطة الفارس ثم تحركت يده بسرعة ، لتقبض على الحبل ، وجذبه بكل ما يملك من قوة ..

وفى هذه المرة كانت المفاجأة من نصيب الفارس ، الذى اختل توازنه ، وسقط عن صهوة جواده ، وهو يهتف ساخطًا :

ـ ماذا فعلت أيها العربى ؟

أطلق جواده صهيلاً قويًا ، وتراجع بحركة حادة ، فى حين سقط هو أرضًا وتدحرج لحظة ، طارت خلالها قبعته ، قبل أن يهب واقفًا على قدميه ، وهو يصرخ فى ثورة عارمة :

ـ كيف جرؤت أيها العربى ؟

عقد (باسل) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول :

ـ لم يكن الأمر يحتاج إلى الجرأة أو الشجاعة .. إنك أردت إثبات مهارتك كراعى بقر ، فأردت أن أثبت لك أن أجدادى هم أول الفرسان .

صرخ فيه الرجل :

ـ أيها السخيف الـ ....

قالها وهو ينقض على (باسل) بلكمة عنيفة ، تفادها (باسل) فى مهارة ، وتركها تتجاوزه ، فاختل توازن الرجل ، وكاد يهوى أرضًا ، ولكن (باسل) أوقفه بلكمة عنيفة فى فكه ، جعلته يرتد فى عنف ، ويسقط أرضًا ، وباسم يقول :

ـ وهذا تأكيد لقولى .

تفجر غضب هادر ، فى وجه الرجل ، وصرخ :

ـ كيف يجرؤ ؟ من سمح له بالدخول إلى هنا ؟

أسرع (برنى) إليه ، وقال فى توتر :

ـ اهدأ يا (أدوين) ؟ الفتى لم يقصد الإساءة .. ثم تذكر أنك أنت بدأت هذا .

صرخ (أدوين) ساخطًا :

ـ من هو ؟ ومن سمح له بالدخول ؟

هتف به (برنى) :

ـ إنه مستشارنا الجديد .

صاح (برنى) فى سخرية عصبية :

ـ مستشاركم الجديد ؟! ماذا ؟ هل ستنتجون فيلمًا عن المهرجين ؟

قال (باسل) ساخرًا :

ـ من المؤكد أنهم سيفعلون ، وأنت ستحصل على دور البطولة .

احتقن وجه (أدوين) ، وهتف :

ـ هل سمعت يا (برنى) ؟ سأحطم أنفه .

صرخ به (برنى) :

ـ كفى يا (أدوين) .. كفى .

ثم نفض يديه ، وهو يلتفت إلى (باسل) مستطردًا :

ـ معذرة يا (باسل) ، ولكن (أدوين) هو فارسنا الأول فى كل لقطات أفلام رعاة البقر .. هو الذى يقوم بالأدوار الصعبة ، وأنت هزمته أمام الجميع ، ومن الطبيعى ألا يحتمل هذا .

صاح (أدوين) :

ـ هزمنى ؟! من قال هذا ؟ إنها مجرد ضربة حظ فحسب .

قال (باسل) فى سخرية :

ـ ضربة حظ ؟! يا لك من مكابر ! هل ترغب فى إعادة الكرة ؟

صاح (أدوين) :

ـ نعم .. ولِمَ لا ؟

شعر (برنى) بالموقف يتوتر أكثر وأكثر ، فهتف :

ـ مهلاً .. لسنا هنا فى ساحة قتال .

قال (أدوين) بلهجة استفزازية :

ـ ولكنه يقول :

ـ إن أجداده هم أوائل الفرسان .. دعه يثبت هذا إذن .

أجابه (باسل) فى صرامة :

ـ أنا مستعد لإثبات هذا فى أية لحظة .

قال (برنى) فى توتر أشد :

ـ كفى .. إنكما تحولان الأمر إلى حرب حقيقية .

تجاهله (أدوين) تمامًا ، وهو يقول لـ (باسم) ، بنفس اللهجة الاستفزازية :

ـ لو أنك صادق فى قولك ، فدعنا نثبت الآن من منا يستحق عن جدارة لقب الفارس ، الذى يتباهى به أجدادك .

قال (باسل) فى حزم :

ـ وأنا مستعد لهذا بأية وسيلة .

صرخ (برنى) :

ـ كفى .. لن أسمح بأى شىء هنا .

صاح به (أدوين) :

ـ اصمت يا (برنى) .. ستسمح بكل ما نطلبه منك ، وإلا فلن تجدنى فى لقطة واحدة فى أفلامك .

صمت (برنى) على مضض ، فى حين أضاف (أدوين) ، وهو يشير إلى (باسم) فى تحد واضح :

ـ سنتبارز الآن يا فتى .. وعلى طريقتنا نحن .. طريقة رعاة الأبقار .

وفى حركة سريعة جذب مسدسه ، وصوَّبه إلى (باسل) الأعزل ..

★ ★ ★

التقى حاجبا (باسل) فى غضب صارم ، وهو يواجه فوهة مسدس (أدوين) ، وقال فى حدة :

ـ أهذه هى وسيلة الفرسان التى تتحدث عنها ؟! أن تطلق النار على شاب أعزل ؟!

ابتسم (أدوين) فى سخرية ، وقال :

ـ ومن قال إننى سأطلق النار عليك ؟

ثم ألقى المسدس إليه ، مستطردًا :

ـ إننى أهديه إليك .. هيا .. أبدل ثيابك ، وارتد ثياب رعاة الأبقار ، وسنمنحك جوادًا قويًا ، وتبدأ المباراة .

عقد (برنى) حاجبيه فى توتر ، وقال :

ـ لن أسمح بهذا .. إنكما تتجاوزان الحدود حقًا .

هزّ (أدوين) كتفيه ، وقال :

ـ ما الذى تخشاه يا عزيزى (برنى) ؟ إننا سنستخدم رصاصات صوت غير قاتلة ، ولن نتجاوز المنطقة الصحراوية الجبلية ، التى يتم فيها تصوير أفلام رعاة البقر ، وليس هناك ما يخيف ، إلا إذا كنت تخشى من أثر الهزيمة ، على مستشاركم الجديد .

قال (باسل) فى حزم :

ـ لن تكون هناك هزيمة بإذن الله .

ثم التفت إلى (برنى) ، وقال :

ـ أين يمكننى الحصول على الجواد ، وزى رعاة الأبقار ؟

وابتسم (أدوين) فى خبث وفى شراسة ..

★ ★ ★

ماذا تريد بالضبط يا (أدوين) ؟

نطق أحد الرجال الثلاثة ، الذين جمعهم (أدوين) فى حجرته بهذه العبارة ، وتطلّع ثلاثتهم فى ترقب واهتمام إليه ، وهو يقول فى حدة :

ـ هناك عربى يتحدانى ، وسنتسابق حتى النهر الصغير ، فى نهاية صحراء التصوير ، ونعود .. ولا أريده أن يعود إلى هنا قط .

سأله أحد الرجال الثلاثة :

ـ هل تريدنا أن نعطله ؟

عقد حاجبيه فى شراسة صارمة ، وهو يقول :

ـ لم أقل إننى أريده أن يصل متأخرًا .. بل قلت لا أريده أن يصل مطلقًا .

سأله آخر فى قلق :

ـ ماذا تعنى بالضبط يا (أدوين) ؟

ابتسم (أدوين) فى وحشية ، وقال :

أعنى أنه وحده سيحمل مسدسًا يخلو من الرصاصات الحقيقية ، أما مسدساتنا ، فستنطلق منها نيران حية .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلق ، وهمس أحدهم :

ـ أتعنى أن نقتله ؟

هتف (أدوين) فى حنق :

ـ رائع .. لقد فهمتم أخيرًا .. يا لكم من أذكياء ! ثم ضم قبضته ، وهو يستطرد فى شراسة :

ـ لقد أهانني هذا العربى ، وأذل ناصيتى أمام الجميع ، سيدفع الثمن ، سيدفعه من دمائه العربية .

★ ★ ★

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (أدوين) ، وهو يتطلع إلى (باسل) الذى ارتدى زى رعاة الأبقار الأمريكيين ، وتمنطق بجراب أنيق من الجلد ، يحوى مسدسًا من تلك المسدسات الأمريكية الشهيرة ، ووضع على رأسه قبعة عريضة الأطراف ، وقال (أدوين) ساخرًا :

ـ من المؤكد أنك تشعر بالقوة ، وأنت ترتدى هذا الزى .

أجابه (باسل) فى برود :

ـ إننى أرتديه لألقنك درسًا ، يقول : « إننا الأقوى دائمًا ، أيًا كان الزى الذى نرتديه . »

عقد (أدوين) حاجبيه فى غضب ، وقال :

ـ فليكن .. لن نتحدث طويلاً .. دعنا نبدأ السباق فعليًا .

غمغم (برنى) فى توتر :

ـ ما زلت أرى كل هذا سخيفًا .

امتطى (أدوين) جواده ، وهو يقول :

ـ لاتتحدث عن السخافة يا عزيزى (برنى) وانتظر حتى تراها مجسمة ، على وجه صديقنا العربى .

ثم التفت إلى (باسل) ، وسأله ساخرًا :

ـ قل لى أيها العربى : هل تجيد ركوب الخيل ؟

ابتسم (باسل) ساخرًا ، وهو يجيب :

ـ أظن هذا .

قالها ووثب وثبة رائعة رشيقة ، شهق لها معظم المحيطين بهما إعجابًا وانبهارًا ، عندما استقر بعدها على متن جواده ، ثم جنب عنانه ، فارتفع الجواد مطلقًا صهيله القوى ، وضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين ، قبل أن يهبط فى عظمة ، و(باسل) يقول فى هدوئه الواثق :

ـ والآن متى نبدأ السباق ؟

شعر (أدوين) بالغيظ يملأ نفسه ، عندما انطلقت أكف الحاضرين بالتصفيق ، إزاء إعجابهم بمرونة (باسل) ومهارته ، فهتف فى حنق ، وهو يلكز جواده بقوة :

ـ الآن .

وانطلق بالجواد عبر شوارع الأستوديو الواسعة ، متجهًا نحو الصحراء الجبلية ، فى نهاية المكان ، وانطلق خلفه (باسل) وتابعهما الجميع فى انبهار ، وهتف أحد الحاضرين :

ـ سيربح (أدوين) حتمًا ، فهو خبير فى هذا المجال .

شاركه العديدون ، فيما عدا (برنى) الذى التقى حاجباه فى شدة ، وهو يتمتم :

ـ من يدرى ؟

وكان على حق ..

من يدرى ؟

لم يصدق (باسل) عينيه ، وهو ينطلق بجواده عبر صحراء جبلية شاسعة تمتد إلى مدى البصر ، بعد دقائق معدودة من عبوره شوارع مدينة السينما ..

كان الأمر يبدو كما لو أنه قد قفز عبر الزمن قرنًا كاملاً إلى الوراء ..

كل شىء يوحى بهذا ، حتى لافتات الطرق ، وخطوط السكك الحديدية القديمة ..

كان من الواضح أن هذا هو المكان الذى يتم فيه تصوير معظم أفلام رعاة الأبقار ، وأن (أدوين) يحفظه عن ظهر قلب ، وهو ينطلق فيه بكل قوته ، محاولاً بلوغ النهر الصغير قبله ..

ولكن (باسل) أيضًا كان فارسًا لايشق له غبار ..

لقد فهم جواده ، وأجاد التعامل معه ، فخضع الجواد ، وأسلمه قياده ، وأطاعه طاعة عمياء ، وراح ينهب الصحراء الجبلية نهبًا ، مقتربًا من جواد (أدوين) ..

وفجأة برز رجال (أدوين) الثلاثة ، من خلف تل صخرى قريب ، وانطلقوا بجيادهم خلف (باسل) الذى غمغم فى قلق :

ـ ماذا يفعل هؤلاء هنا ؟ أهم جزء من فيلم يجرى تصويره .. أم ..؟

امتلأت نفسه بمزيد من القلق ، مع الجزء الثانى من سؤاله ، وخاصة عندما استل الثلاثة ـ الذين يرتدون ثياب رعاة الأبقار ـ مسدساتهم ، وراحوا يطلقون نيرانها نحوه ..

فى البداية ، تصور (باسل) أنهم يستخدمون مسدسات صوتية ، كما يحدث فى كل أفلام رعاة الأبقار ، إلا أنه فوجئ بإحدى الرصاصات ترتطم بالصخور إلى جواره ، وترتد فى عنف ، فهتف :

ـ رباه ! إنها مطاردة حقيقية .

كان قد تجاوز (أدوين) بجواده ، فى هذه اللحظة ، فسمعه يهتف فى شماتة :

ـ هيا أيها العربى .. استعد للخسارة الحقيقية .

واستل (أدوين) مسدسه بدوره ، وصوبه إلى (باسل) ، الذى صاح بجواده ، وهو يلكزه بشدة :

ـ أسرع يا صديقى .. أسرع .. لقد وقعنا وسط عصابة من القتلة ، وأحنى رأسه فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن يطلق (أدوين) رصاصته ، وسمع أزيز الرصاصة وهى تعبر فوق رأسه ، وصوت (أدوين) يصرخ :

ـ مت أيها العربى .. مت .

وعندئذ أدرك (باسل) حقيقة الأمر ..

لقد قرر (أدوين) قتله ..

قتله بلا رحمة ..

ولم يكد عقل (باسل) يستقر عند هذه النقطة حتى اتخذ فى أعماقه قرارًا حاسمًا ، لا رجعة فيه .

قرر أن يواجه الجميع ، بلا تردد .

وفى حزم جذب (باسل) عنان جواده ، وأدار عنقه فى مهارة فارس قدير ، ودفعه إلى الدوران حول نفسه فى قوة ، ليواجه الرجال الأربعة ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها فوهات مسدساتهم نحوه ، و ...

حانت لحظة المواجهة القاتلة ..

* * *

رأى (باسل) فوهات المسدسات الأربعة مصوبة إليه ، والموت يطل منها متلهفًا ، إلا أنه لم يتراجع أو يتوقف ، بل واصل انقضاضته ، ومال جانبًا على متن الجواد ، حتى صار جذعه موازيًا للأرض ، وترك الرصاصات الأربع تدوى فى الفراغ ، وتعبر فوق جسده ، ثم اعتدل ، ووثب بالجواد نحو خصومه ..

وكان مشهدًا يستحق التسجيل حقًا ..

لقد امتزجت الجياد الخمسة ببعضها ، واختلط الحابل بالنابل ، وتصاعد صهيل الجياد وصياح الرجال ، عندما انقض (باسل) فى مهارة وحنكة ، وهوى بقبضته على فك أحد الرجال الثلاثة ، ثم دفع الثانى عن جواده ، وسمعه يطلق سبابًا ساخطًا ، وهو يسقط أرضًا ، ولكن (باسل) لم يتوقف ليسمع ذلك السباب ، وإنما انطلق بكل سرعة جواده فى الاتجاه العكسى ..

وصرخ (أدوين) فى غضب :

ـ الحقوا به .. لا تسمحوا له بالفرار .

ارتبك الرجال واضطربت الخيول ، وساد شىء من الهرج ، قبل أن يعود الرجلان اللذان أسقطهما (باسل) عن جواديهما ، وينطلق الجميع خلف (باسل) ..

وشعر (باسل) بالحيرة ، وهو ينطلق وسط تلك الصحراء الجبلية ، التى تبدو مترامية الأطراف ، وكأنها لا نهاية لها ..

إنه يجهل دروب ومسالك المكان ..

يجهل حتى إلى أين ينبغى أن ينطلق ..

ولكن الشىء الوحيد الذى يعلمه ، هو أن أربعة من القتلة يطاردونه ، بكل الوحشية والإصرار ..

أربعة يسعون لقتله بلا رحمة ..

ومن خلفه ، تصاعدت صرخات (أدوين) :

ـ اقتلوه .. أطلقوا النار عليه .

وسمع (باسل) الرصاصات تدوى فى الصحراء ، فانحرف بجواده جانبًا ، وانطلق نحو ممر ضيق بين جبلين ، وسمع وقع الجياد الأربعة خلفه ، فغمغم :

ـ تُرى كيف يمكننى التخلص منهم ؟

اندفع داخل الممر بكل سرعته ، وراح جواده ينهب الأرض نهبًا ، محاولا بلوغ نهايته ، ولكن ..

كل الأمور تنقلب رأسًا على عقب ، عندما ترتطم بهذه الكلمة ..

كلمة (لكن) ..

لقد كان كل شىء يسير على ما يرام ، فهو يسبق خصومه بمسافة معقولة ، والممر أضيق من أن يسمح لهم باللحاق به ، ولكن يا للخسارة .. كانت هناك كومة من الصخور ، تسد نهاية الممر ، وتضع (باسل) بين المطرقة والسندان ..

وتوقف جواد (باسل) ، وهو يطلق صهيلاً عصبيًا ، وكأنما أدرك دقة الموقف ، فى حين أطلق (أدوين) ضحكة ساخرة من بعيد ، وهو يهتف :

ـ لقد وقع فى أيدينا .. لاتطلقوا عليه النار الآن .. أريد أن أرى الهزيمة على وجهه قبل أن يلقى مصرعه ..

إلا أن (باسل) ظل ، على الرغم من كل هذا ، محتفظًا بهدوء أعصابه ، وهو يعود بجواده إلى الخلف ، قائلاً له :

ـ لاتجعل هذه الصخور تخيفك أو تربكك يا صديقى .. إنك جواد قوى ، وسيمكنك عبور هذه الكومة .. فقط حاول .

ثم لكزه بركبتيه بقوة ، هاتفًا :

ـ هيا .. انطلق .

خُيِّل إليه أن الجواد قد فهم ، وأطاعه ، وشاركه محنته وانفعاله ، فقد انطلق بكل قوته نحو كومة الصخور ، ولم يكد يبلغ موضعًا مناسبًا منها ، حتى هتف به (باسل) :

ـ الآن يا صديقى ..

ووثب الجواد ..

ما من شك فى أن وثبته جاءت رائعة ، مدهشة ، حتى إن (أدوين) ورجاله أصابهم الوجوم ، واتسعت عيونهم فى دهشة ، وسقطت فكوكهم السفلى فى بلاهة ، والجواد يجتاز كومة الصخور ويهبط فوق تبة قصيرة ، ثم يثب منها مرة ثانية إلى الجانب الآخر للممر ، ويواصل طريقه عدوًا .

وهتف (أدوين) :

ـ مستحيل !! كيف فعل هذا ؟ كيف دفع الجواد إلى ذلك ؟

غمغم أحد رجاله :

ـ من الواضح أنه فارس عظيم .

صرخ به (أدوين) :

ـ اخرس .. لا تقل هذا .. أنا أعظم الفرسان .. لا يوجد من يفوقنى قوة وخبرة ، فى هذا المجال .

تمتم رجل آخر :

ـ ولكنك رأيت ما فعله .. إننى لم أر فى حياتى كلها ...

صرخ (أدوين) مقاطعًا ..

ـ حظ .. مجرد حظ حسن .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة دهشة ، قبل أن يقول أحدهم مجاملاً ومنافقًا :

ـ نعم .. هو حظه الحسن بالتأكيد .

جذب (أدوين) عنان جواده فى عصبية ، وقال :

ـ ولكنه لن يذهب بعيدًا ، فبعد الممر لن يجد سوى الجبل الكبير ، ووادى الموت .. ونحن سنحاصره فى الوادى ، وندفعه دفعًا إلى المدينة القديمة ، وهناك نحيط به ، ويلقى مصرعه ..

سأله أحد الرجال :

ـ وكيف سنبرر مقتل

هتف فى حدة :

ـ لن نكون فى حاجة إلى هذا أيها الغبى .. إنه ليس أول من يلقى مصرعه هنا ، وتختفى جثته إلى الأبد .. هيا .. سنبدأ الجولة الثانية ، وفى هذه المرة لن يكون الفوز من نصيبه أبدًا .. أبدًا .

* * *

عبر (باسل) بجواده الممر الجبلى ، وانطلق عبر واد فسيح ، تفترش الأشواك والنباتات الجافة أرضه ، ويحده من بعيد جبل هائل ، يبدو وكأنه حاجز منيع ، يحول بينه وبين العودة إلى مدينة السينما ..

وانطلق (باسل) بجواده طويلاً ، محاولاً البحث عن مخرج ، ثم لم يلبث أن مسح عرقه الغزير ، وتمتم :

ـ من الواضح أننا لن نجد مخرجًا من الناحية الغربية .. سنتجه إلى الشرق .

استعد للانطلاق بجواده ، عندما دوت رصاصة فى المكان ، وأصابت الأرض أمام الجواد ، الذى أطلق صهيلاً عاليًا ، امتزج بضحكة ساخرة ، انطلقت من بين شفتى (أدوين) الذى وقف بجواده على قمة تل صخرى قريب ، وهو يقول :

ـ خسرت هذه المرة أيها العربى .. الآن ينبغى أن تعترف بأنك لن تبلغ أبدًا تلك المرتبة ، التى بلغتها أنا فى عالم الفروسية .

ومع كلماته ، برز رجاله الثلاثة من خلف التل ، واتجهوا وأسلحتهم مشهورة نحو (باسل) ، الذى قال :

ـ وما الذى تعرفه أنت عن الفروسية ؟

قال (أدوين) فى زهو مغرور :

ـ اعرف أن الفروسية تساوى النصر يا فتى .. النصر فى كل موقف وكل معركة .

ـ هزَّ (باسل) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ خطأ يا (أدوين) .. الفروسية ليست مجرد النصر فى المعارك .. ولكنها النصر الشريف .

ـ أطلق (أدوين) ضحكة ساخرة أخرى ، وقال :

ـ النصر لا يحمل تسمية يا فتى .. لايوجد نصر شريف ونصر غير شريف .. يوجد فقط نصر وهزيمة .

استل (باسل) مسدسه ، وهو يقول :

ـ هل تظن هذا ؟

ابتسم (أدوين) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ما الذى ستفعله بهذا المسدس يا فتى ؟ هل نسيت أنه لايحوى سوى رصاصات صوتية فحسب ؟

قال (باسل) :

ـ ربما كان مفيدًا .

ضحك رجال (أدوين) فى سخرية ، وهم يحيطون بـ (باسل) ، فى حين قال (أدوين) فى استهتار شامت :

ـ وفيم يمكن أن يفيد .. فى إخافة الصغار ؟

قال (باسل) فى هدوء :

ـ أو فى هزيمة الكبار .

هزَّ (أدوين) كتفيه ، وقال :

ـ كم سيروق لى أن أرى هذه الأعجوبة !

ثم أشار إلى رجاله ، مستطردًا :

ـ هيا يا رجال .. دعونا نحول جسد صديقنا العربى إلى مصفاة .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفعت فوهات المسدسات الثلاثة نحو رأس (باسل) فأردف (أدوين) فى شماتة :

ـ الوداع يا فارس العرب .

ودوت رصاصة فى أعماق الوادى ..

وادى الموت ..

★ ★ ★

فرك (برنى) يديه فى عصبية ، وهو يقف أمام (ليوناردو) ، مدير الأستديوهات بمدينة السينما ، الذى بدا شديد الغضب والثورة ، وهو يهتف :

ـ أى عبث هذا ؟ كيف تسمح لشاب مختل مثل (أدوين) ، بتحدى ومبارزة مستشارنا العربى الجديد ؟ ألا تذكر ما فعله (أدوين) هذا فى المرة السابقة .. لقد كلفنا الأمر مليونى دولار ، لنقنع أهل ضحيته بالسكوت .

أجابه (برنى) فى توتر :

ـ لم أستطع منعهما يا سيدى .. لقد استثار (أدوين) الشاب العربى (باسل) ، عندما تحداه لإثبات مهارته فى عالم الفروسية ، و ...

صرخ (ليوناردو) :

ـ وماذا ؟ وتركته يصحبه إلى وادى الموت .. أليس كذلك ؟

غمغم (برنى) فى اضطراب :

ـ سيدى .. إننى ..

قاطعه (ليوناردو) بإشارة من يده ، وقال :

ـ كفى .. اتخذ إجراءاتك بسرعة ، وحاول منع المذبحة الجديدة ، التى يسعى إليها (أدوين) أرسل فريق بحث ، أو حتى هليكوبتر .. المهم أن تعود بالفتى العربى سالمًا .. هل فهمت ؟

تمتم (برنى) :

ـ فهمت يا سيدى .. ولكن المشكلة هى أن نصل فى الوقت المناسب ..

وكان (برنى) على حق .. المشكلة أن يصلوا فى الوقت المناسب ..

★ ★ ★

كانت فوهات المسدسات الثلاثة مصوبة إلى رأس (باسل) مباشرة ، وأصابع أصحابها متأهبة ومتحفزة للضغط على الأزندة ، وإطلاق الرصاصات الحقيقية ، وكان (باسل) وحده يحمل مسدسًا صوتيًا ، ولكن ..

فجأة ، وبلا مقدمات ، انحنى (باسل) ، وألصق مسدسه بأذن أحد الجياد ، وضغط زناده ..

وعلى الرغم من أن رصاصات المسدس كانت صوتية فحسب ، إلا أنها تفجرت بدوى شديد ، أفزع الجواد ، الذى جفل فى عنف ، وأطلق صهيلاً قويًا ، وارتفع نصفه الأمامى فى وجل ، وهو يتراجع فى حدة مباغتة ، أفقدت قائده توازنه ، فصرخ وهو يهوى عنه ، ومسدسه يطلق رصاصة طائشة ، استقرت فى كتف زميله ، الذى صرخ بدوره :

ـ آه لقد أصبتنى أيها الغبى .

وقبل أن يضيع أثر المفاجأة ، لكز (باسل) جواده ، وجذب عنانه صائحًا :

ـ انطلق يا صديقى .. سنربح هذه الجولة أيضًا بإذن الله .

صرخ (أدوين) من أعلى التل :

ـ لا تسمحوا له بالفرار .

وصاح الرجل الثالث ، وهو يصوّب مسدسه إلى (باسل) :

ـ اطمئن .. إنه لن يذهب بعيدًا .

ولكن (باسل) مال فى مهارة ، وركل المسدس من يد الرجل ، وهو على صهوة جواده ، فألقاه بعيدًا ، ثم انطلق نحوه هاتفًا :

ـ ألم تتسرع فى هذا القول يا رجل ؟

صرخ (أدوين) فى ثورة وغيظ :

ـ لا تتركوه .. انطلقوا خلفه .

قالها وهو يهبط التل بجواده فى غضب ، ويستل مسدسه بدوره ، ولكن عينيه اتسعتا فجأة فى انبهار كامل ، عندما رأى (باسل) يميل على صهوة جواده بشدة ، وعلى نحو هائل ومخيف ، حتى يصبح جسده موازيًا للأرض تقريبًا ، ثم يلتقط المسدس الذى سقط من الرجل الثالث ، ويعتدل فى مرونة مدهشة ، ليواصل انطلاقه بجواده ..

وفى ذهول هتف الرجل الثالث :

ـ لم أر فى حياتى كلها شيئًا كهذا .. هذا الفتى فارس بحق .

صرخ به (أدوين) :

صه يا رجل .. لايوجد فارس سواى .. هيا .. سننطلق خلفه ..

أجابه المصاب :

ـ لن يمكننى يا (أدوين) .. لقد أصابتنى الرصاصة ، وأنا أنزف بشدة ، وأحتاج إلى إسعاف .

وهتف الثانى :

ـ وأنا أشعر بآلام مبرحة فى عمودى الفقرى .. لقد تحطم بسبب سقوطى .

صرخ (أدوين) غاضبًا :

ـ تبًا لكما .. سألحق به وحدى .. ولكنه أردف :

ـ هيا يا (فرايد) .

انطلق الاثنان خلف (باسل) ، وقال (فرايد) فى توتر :

ـ هذا الشاب ليس سهلاً يا (أدوين) .. هل رأيت كيف يتعامل مع جواده ، وكيف يقاتل بحنكة وذكاء ؟

أجابه (أدوين) فى حدة :

ـ مجرد حظ .. هذا الفتى العربى لن يملك خبرتنا قط ، فى هذا المجال ، ثم إنه يتجه إلى حيث أردنا تمامًا .. إلى المدينة القديمة ، ونحن نحفظ كل شبر فيها عن ظهر قلب ، وسنصطاده هناك .

غمغم (فرايد) :

ـ الحقيقة يا (أدوين) أننى أخشى أن ..

قاطعه فى صرامة :

ـ لا تخش شيئًا يا رجل .. إننا سنظفر بهذا العربى .. سنظفر به حتمًا .

وتقاطرت الكراهية مع كلماته ..

★ ★ ★

بدا (باسل) مبهورًا تمامًا ، وهو يلج تلك المدينة القديمة ، فى قلب وادى الموت ..

كانت تشبه تمامًا تلك المدن ، التى يراها فى أفلام رعاة الأبقار القديمة ، ولكنها مهجورة تمامًا ..

منازل خشبية من طابقين ، وحوار ، وإسطبل للخيول ، وكل ما تحويه تلك المدن التقليدية ، التى اعتاد رؤيتها .. حتى مكتب مأمور البلدة ، بتلك النجمة الخماسية التى تزينه ..

وفى انبهار ، تقدم (باسل) من مكتب المأمور ، ورأى الغبار يكسو نوافذه ، ولكنه هبط عن جواده ، وهو يقول لنفسه :

ـ رباه ! يخيل إلىَّ أننى قد انتقلت عبر الزمن ، إلى تلك الحقبة من التاريخ الأمريكى .

دفع باب مكتب المأمور فى حذر ، وأدار بصره فى المكان ، قبل أن يستطرد :

ـ تمامًا كما يبدو فى الأفلام القديمة .

جذبت انتباهه نجمة نحاسية غطتها الأتربة ، ملقاة على سطح مكتب المأمور ، فمد يده يلتقطها وهو يغمغم :

ـ آه .. ها هى ذى شارة رجال الأمن ، فى تلك الحقبة .. كم تمنيت فى طفولتى تعليق مثلها على صدرى !

التقط منديله ، وأزال به الأتربة عن شارة المأمور ، فبدت صفراء لامعة ، أشبه بالذهب ، مما جعله يبتسم ، مستطردًا :

ـ من الواضح أنها لا تستخدم إلا فى القليل من اللقطات ، فهى جديدة تقريبًا .

تأملها فى ارتياح ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى شدة ، عندما ارتفع صوت صارم يقول :

ـ وقعت أيها العربى .. من سوء حظك وعدم خبرتك أنك قد اخترت مكتب المأمور بالذات ، فهو فى موقع تسهل محاصرته ، ويصلح كهدف للتصويب الجيد .

وضع (باسل) الشارة فى جيبه ، واعتدل فى تحفز ، فى حين استطرد (أدوين) فى صفاقة واضحة :

ـ إننى أمنحك خمس دقائق للاستسلام ، دون قيد أو شرط وإلا فسنطلق النار عليك ، حتى نحيلك إلى مصفاة ، وبالمناسبة ، لا تحاول الخروج من الباب الخلفى ، فصديقى (فرايد) يصوب مسدسه إليه .

لم يقتنع (باسل) بتهديد (أدوين) وتحرك صوب الباب الخلفى ، ودفعه بكفه فى خفة ، ولم يكد يفعل حتى دوت رصاصة ، ارتطمت بالباب ، وغاصت فى سمكه الخشبى ، فتراجع (باسل) ، وهو يقول :

ـ إنه لا يمزح .. لقد حاصرانى بالفعل .

سمع (أدوين) يطلق ضحكة ساخرة عالية ، ويقول :

ـ أظنك أدركت حقيقة موقفك الآن أيها العربى .. إنك محاصر تمامًا ، ولكن محاولتك هذه جعلتنى أغير رأيى .. لن أمنحك دقيقة واحدة ، بل سأترك لك الخيار بين الموت برصاصات مسدسى ، أو ... بالنيران .

لم يكد يتم عبارته ، حتى سقطت زجاجة من البنزين المشتعل داخل مكتب المأمور ، وتحطمت فى عنف ، واشتعلت النيران فى المكتب ، و(أدوين) يهتف شامتًا فى الخارج :

ـ اختر أيها العربى .. الرصاص أم النيران ؟!

وانطلقت ضحكته الوحشية فى المكان ..

★ ★ ★

ارتفع أزيز الهليوكوبتر ، التابعة لمدينة السينما ، وهى تجوب وادى الموت ، والتقط قائدها مسماع جهاز اللاسلكى يقول للمصور الجالس إلى جواره :

هل رأيت شيئًا ؟

كان المصور يفحص المكان بعدسته المقربة ، وهو يقول :

ـ لا .. لا يوجد أى أثر لهم .

هزّ الطيار رأسه متفهمًا ، وقال عبر جهاز اللاسلكى :

ـ لم نجد أدنى أثر .. ما المطلوب منا الآن ؟

صاح به (ليوناردو) فى غضب :

ـ واصل البحث .. لا تعد دون الفتى العربى ، مهما كان الثمن .

تنحنح (برنى) ، وقال :

ـ هل لى أن أقترح شيئًا ؟

صاح به (ليوناردو) :

ـ المهم ألا يزيد الطين بلة .

تنحنح مرة أخرى ، وقال :

ـ إننى أفهم طريقة تفكير (أدوين) إلى حد ما ، وأعتقد أنه جذب الفتى إلى المدينة القديمة .. إنه يعشق تمثيل دوره التقليدى هناك .

عقد (ليوناردو) حاجبيه ، واختطف مسماع جهاز اللاسلكى ، هاتفًا :

ـ انطلق إلى المدينة القديمة بأقصى سرعة .

فوجئ (باسل) بأنه محاصر بين النار والرصاصات ، إلا أنه نجح فى السيطرة على أعصابه جيدًا ، وهو يقول لنفسه :

ـ ترى أيهما أكثر رحمة .. النيران أم رصاصات (أدوين) ؟

وفجأة هتف وقد أشرق وجهه :

ـ لا هذا ولا ذاك .. سأختار الباب الخلفى .

قالها وحمل مقعد مكتب المأمور ، واندفع نحو الباب الخلفى ، وألقاه بكل قوته على زجاج الباب ، فتحطم بدوى هائل ، وسقط فى الخارج ، فأطلق (فرايد) عليه نيرانه فى توتر وجذع ..

وفجأة وثب (باسل) عبر نافذة المكتب الخلفية ، وانقض كالليث على (فرايد) ، الذى تراجع صائحًا فى ذعر :

ـ لا .. لا .. ابتعد عنى .

حاول أن يدير فوهة مسدسه نحو (باسل) ولكن هذا الأخير ركل المسدس فى قوة ، وهوى بقبضته على فك (فرايد) كالقنبلة ، وأعقب هذا بلكمة أخرى فى معدته ، وثالثة فى أنفه ، فهوى فاقد الوعى ..

وراحت النيران تلتهم مكتب المأمور ، و(أدوين) يصرخ :

ـ (فرايد) .. أين أنت ؟ ماذا حدث ؟ لماذا أطلقت النيران عندك ؟

ولما لم يسمع جوابًا ، توترت أعصابه فى شدة ، وراح يطلق النيران عشوائيًا ، صارخًا :

ـ أجب يا (فرايد) .. أجب .. أين أنت ؟

وفجأة ارتجف جسده كله ، وانتفض على نحو عجيب ، عندما سمع صوت (باسل) من خلفه ، يقول فى هدوء :

ـ لن يجيب يا (أدوين) .. إنه فاقد الوعى .

التفت (أدوين) خلفه بسرعة كبيرة ، وصوب مسدسه إلى (باسل) ، الذى بدا هادئًا متماسكًا ، يعقد ساعديه أمام صدره ، ويرمقه بنظرة صارمة ، فهتف :

ـ هل تتصور أنك قد فاجأتنى أيها العربى ؟ هراء .. لو أنك ترغب فى هزيمة (أدوين) ، فلا تقف هكذا معقود الساعدين ، بل دع مسدسك يتحدث عنك .

وصوب المسدس إلى رأس (باسل) مباشرة ، وهو يستطرد :

ـ لقد درت حول المكان كله لتلقى حتفك .. هيا اذهب من هنا ..

وضغط الزناد فى حزم ..

ولم يتحرك (باسل) قيد أنملة ..

لقد بقى هادئًا ، عاقدًا ذراعيه ، أمام صدره ، فى حين لم يصدر مسدس (أدوين) سوى تكة معدنية مكتومة ، فشحب وجه الرجل ، وانكمش فى مكانه ، وهو يتمتم :

ـ لقد .. لقد نفدت رصاصاتى .

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ كنت أعلم هذا يا (أدوين) .. فأنت لم تحص رصاصاتك ، فى حين فعلت أنا .. لقد أطلقت تسع رصاصات ، وهى كل محتويات خزانة مسدسك ، الذى هو نسخة طبق الأصل من مسدسى .

بدا غضب شديد على وجه (أدوين) ، وهو يهتف :

ـ فليكن .. اقتلنى إذن أيها العربى .. اقتل رجلاً أعزل .

هز (باسل) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلا يا (أدوين) .. أنت مريض نفسيًا ، ومن غير المنطقى أن أقتل رجلا مريضًا .. بل ليس من الرحمة أن أفعل .

صرخ (أدوين) :

ـ بل أنت جبان .. عربى جبان .

قال (باسل) فى صرامة :

ـ كنت أعلم أن صفاقتك ستقودك إلى هذا ؛ لذا فقد أعددت بنفسى سيناريو المشهد الأخير فى هذا السباق .

وفى هدوء ، خفض ساعديه عن صدره ، فتألقت عليه نجمة المأمور اللامعة ، فى حين ألقى هو مسدس (فرايد) إلى (أدوين) ، قائلاً فى حزم :

ـ خذ يا (أدوين) .. سيشبع العقدة النفسية الكامنة فى أعماقك ، وسننهى الأمر على طريقة رعاة الأبقار .

التقط (أدوين) المسدس ، وارتجفت أصابعه وهو يدسه فى جرابه ، قائلاً :

ـ فليكن أيها العربى .. ستعلم الآن من الفارس فى هذا المجال .

أجابه (باسل) فى برود :

ـ أطبق شفتيك ، واستعد للقتال .

تراجع (أدوين) عدة خطوات إلى الخلف ، وتراقصت أصابعه وهو يستعد لالتقاط مسدسه ، فى حين اتخذ (باسل) وقفة مماثلة ، على طريقة أفلام رعاة الأبقار القديمة ، وقال فى هدوء :

ـ هيا يا (أدوين) .. سأترك لك فرصة البدء .

فى هذه اللحظة بالذات ، ظهرت الهليكوبتر فى سماء المدينة ، وهتف الطيار :

ـ ها هما .. يا للعجب ! إنهما سيتبارزان على الطريقة القديمة .

هتف المصور فى حماس :

يا له من مشهد ! (أدوين) يواجه عربيًا ، بأسلوب رعاة الأبقار .. إنه مشهد العمر .

أعدَّ آلة التصوير ، وراح يلتقط المشهد فى لهفة ، فى حين قبض (أدوين) عضلاته كلها ، وقال :

ـ إنها نهايتك أيها العربى .

تمتم (باسل) فى هدوء صارم :

ـ بل هو مشهدك الأخير يا (أدوين) .

مضت لحظات من الصمت ، ثم صرخ (أدوين) :

ـ مت أيها العربى .

وسحب مسدسه فى سرعة ، ولكن (باسل) كان الأسبق ، فقد جذب مسدسه كالبرق ، وأطلق منه رصاصة واحدة ..

رصاصة أصابت مسدس (أدوين) وأطاحت به بعيدًا ، قبل أن تنطلق منه رصاصة واحدة ..

وهتف المصور فى انبهار :

ـ لقد هزمه .. هزم (أدوين) .. يا للروعة ! لقد حطم غرور فارسنا تمامًا .

أما (أدوين) ، فقد اتسعت عيناه فى ذهول ، لم يلبث أن امتزج بالغضب ، وهو يهتف :

ـ أين تعلمت هذا أيها العربى ؟

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ فى ناد للرماية يا (أدوين) .. كانت لعبة ، أمارسها منذ صباى .

تفجر الغضب فى وجه (أدوين) وانقض على (باسل) ، صارخًا :

ـ لن تهزمنى أيها العربى .. لن تهزمنى .

ولكن (باسل) استقبله بلكمة كالقنبلة ، ألقته أرضًا فاقد الوعى ، وصرخ المصور :

ـ لقد فعلها .. العربى فعلها .

تردَّد هتافه مع هبوط الهليكوبتر ، إلى جوار (باسل) ، وصاح به الطيار :

ـ أأنت بخير يا فتى .. هل أتصل بمستر (ليوناردو) ليطمئن ؟

أجابه (باسل) فى حزم :

ـ بل اتصل بالشرطة .

تبادل الطيار نظرة متوترة مع المصور ، وقال :

ـ الشرطة ! ولكن (أدوين) هو شقيق مستر (ليوناردو) ، و ...

قاطعه (باسل) فى صرامة :

ـ لا يعنينى شقيق من هو .. إنه بالنسبة لى مجرد مجرم قاتل ، وأنا مصرّ على تسليمه للعدالة .. لقد أخطأ (أدوين) كثيرًا ، ومن العدل أن يلقى جزاءه .

ابتسم المصور ، وقال :

ـ صدقت أيها العربى .. من العدل أن يسدل الستار أخيرًا على جنون (أدوين) وعقده .. إنه المشهد الأخير بحق .

★ ★ ★

تمت بحمد الله

كوكتيل روايات مصرية للجيب ٢٠٠٠

حبيبى

دراسة

٧ ـ عندما يرحل الحب

٧ ـ عندما يرحل الحب ..

مهما بلغت العلاقة بين اثنين ، ومهما تصوَّر كل منهما أنه قد صار يعرف الآخر كما يعرف نفسه ، فما من مرة ، أمكننى فيها أن أحصل على جواب منطقى ، عندما يرحل الحب ..

ففى لحظة ما ، تبدو دومًا غامضة مفاجئة ، لأحد طرفى المعادلة ، قد يسمع أحد الطرفين من الطرف الآخر عبارة : «لم أعد أشعر بك كالماضى .. »

ومع سماعها ، يصاب ذلك الطرف بالدهشة ..

والغضب ..

والحيرة أيضًا ..

ففى كل المرات ، مهما تعدَّدت الحالات ، يحدث هذا فجأة ..

وبلا مقدمات ..

وهذا ليس واقع الأمر ، ولكنها الصورة التى تبدو دومًا للطرف المصدوم ، والمطالب بالخروج من اللعبة ..

وهى صورة غير صحيحة ..

فى كل الأحوال ..

فالواقع أنه تكون هناك دومًا مقدمات ..

وتمهيدات ..

وإشارات ..

وتلميحات ..

ولكنه لا يراها ، أو يشعر بها ، أو حتى يدركها ..

ولعل هذا أحد أهم أسباب الانفصال ..

فمع بداية الحب ، تنتاب كل منا شراهة عجيبة ، تدفعنا إلى أن ننهل من حبنا هذا بمنتهى النهم ..

ولأن الحب فى مجمله غزير وفيّاض ، فنحن ننهل ، وننهل ، وننهل ، حتى نتصوّر أنه نبع لا ينضب أبدًا ..

ولكن الحب ليس نبعًا خالدًا ..

إنه نبع طبيعى ، محدود الكمية ، على الرغم من غزارته ..

والينابيع الطبيعية ترتوى بمياه الأمطار ، ثم تمنحنا ماءها العذب ..

والحب أيضًا يحتاج إلى تلك الأمطار ؛ ليبقى ..

ويستمر ..

ويستقر ..

والأمطار هى مردود الحب ..

فأنت تنهل من حبيبك بقدر ما تستطيع ، وتمنحه أيضًا بقدر ما يمكنك ، حتى ينهل ويرتوى منك بدوره ..

لو فعلتها فسيبقى الحب ..

وينمو ..

وينتصر ..

ولكن من الواضح أن كل ما ندركه عن الحب هو الأخذ ، وليس العطاء ..

الاستمتاع ، وليس المسئولية ..

لذا ، فهو ينهار بسرعة ..

ويذبل ..

ويرحل ..

وعندما يرحل الحب ، يبدأ العذاب الأكبر ..

ففراغ ما بعد الحب ، لا يمكن أن يشبه أى فراغ آخر ، فى أية مرحلة مختلفة من الحياة ..

وبالذات فراغ ما قبله ..

فقبل أن نحب ، نعانى من فراغ القلب ، ولهفته إلى الحب ..

والتقارب ..

وتبادل المشاعر ..

العواطف ..

والأحاسيس ..

ثم يأتى الحب ..

ومعه يأتى كل هذا ..

ويخفق القلب ..

وينتعش ..

ويحيا كما لم يفعل من قبل ..

أبدًا ..

ومع استمرار الحب ، يعتاد المرء هذا الشعور ..

ويدمنه ..

ويتعايش معه ..

وبه ..

ثم تأتى تلك الصدمة .

ويرحل الحب ..

ومع رحيله ، تنهار كل تلك المشاعر ، وتترك فى القلب خلفها فراغًا ..

فراغًا هائلاً كبيرًا ..

فراغًا ليس بحجم القلب ، بل بحجم الكيان كله ..

وربما أكبر منه ..

ألف مرة ..

وللوهلة الأولى ، قد يغضب المرء ؛ لأنه قد فقد الحب ..

ثم ، ومع مرور الوقت ، يتحوّل الغضب إلى مرارة ..

ولوعة ..

وفراغ ..

القلب الذى اعتاد أن يخفق كطير سعيد ، توقفت خفقاته ، وانهارت سعادته ، ولم يعد لديه مبرِّر واحد ليبقى فى صدر محب قديم ..

وتنهار المشاعر كلها ، واحدًا بعد الآخر ، كما لو أنها كانت مربوطة كلها بخيط واحد ..

خيط حب ..

وفى بعض الأحيان ، قد يؤدى هذا إلى مراجعة النفس ..

ومصارحتها ..

وكشف أسباب الرحيل ..

وفى تلك الحالات ، يتضاعف العذاب أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

فالمرء يدرك عندئذ أنه المسئول عن الفراغ ..

أن إهماله لعواطف ومشاعر شريكه ، هى التى قتلت الحب ..

ولحظتها سيشعر بالندم ..

والألم ..

وعذاب الذات ..

وربما يسعى ، بكل طاقته ، لإصلاح الخطأ ، واستعادة من يحب ..

ولكن نادرًا ما يفلح هذا ..

فالطرف الآخر عانى العذاب نفسه من قبل ، ولكن بصورة عكسية تمامًا ..

عاناه ، وهو يحاول أن يوضح الصورة ..

وينيرها ..

ويلقى الضوء على نقاط القصور ..

والأنانية ..

والفشل ..

ولكنه واجه كل هذا بتجاهل تام من الآخر ..

أو بعدم فهم ..

أو بأنانية ، استولت على كل المشاعر ، وأهملت ردود الفعل فى الجانب الآخر ، أثناء انشغالها بتلبية متطلباتها ، وتغذية متعتها ..

وعندما اتخذ الطرف الأوّل قرارًا ، لم يكن هذا سهلاً أو هينًا ..

بل جاء أيضًا بعد عذاب ..

وعذاب ..

وعذاب ..

وبعد ألف محاولة ومحاولة ..

وعندما أصابه اليأس من إصلاح الموقف ، أو دفع الطرف الثانى إلى الإحساس به ، ومعاملته كبشر ، له مشكلاته ومتاعبه ، وليس كمجرد مصدر دائم للمتعة ، اتخذ أخطر قرار ..

قرار الانفصال ..

والقرار فى طبيعته يختلف ، عندما يتخذه الذكر ، أو تتخذه الأنثى ..

فالذكر قد يتخذ قرار الانفصال لأسباب أوهى ، مثل انشغاله بأخرى ، أو شعوره بالملل من نمطية العلاقة ، أو حتى لمجرد التغيير ..

أما الأنثى ، فلا تتخذ هذا القرار إلا لأسباب أكبر ..

وأعنف ..

وأخطر ..

هذا لأن الأنثى ، بغريزتها ، أميل إلى الاستقرار والهدوء ..

وهى لا تهوى التغيير المستمر ..

لذا ، فهى تبذل قصارى جهدها فى الغالب ؛ لاستمرار العلاقة ..

وفى سبيل هذا تتحمل الكثير ..

والكثير جدًا ..

كما أن الأنثى أيضًا لديها مقدرة أكبر على التسامح ..

والتجاوز ..

والغفران ..

وكل هذا فى سبيل استمرار العلاقة ..

لذا فهى قد تغفر للذكر ..

وتتجاوز عن أخطائه ..

وإهماله لمشاعرها ..

وحتى عن عيونه الزائغة ..

ولكن المشكلة أنها لا تنسى أبدًا ..

كل ما تفعله ، هو أن تختزن هذا ، فى ركن قصى من عقلها ..

وقلبها ..

ومشاعرها ..

ثم تتكرَّر الأخطاء ..

وتتكاثر ..

وتحتشد هناك ، فى ذلك الركن ..

ومع مرور الوقت ، يكتظ الركن بما فيه ، ويختنق به ، ولا يجد متنفسًا واحدًا للمزيد ..

وهنا ، يصبح الاحتمال مستحيلاً ..

والانفصال أكيدًا ..

وينهار الحب ..

ولأنه قد انهار بعد معاناة طويلة ، وكفاح مرير ، واحتمال فاق طاقته ، فإن العودة إليه تكون عسيرة ..

وربما مستحيلة ..

وهنا يدرك الطرف الثانى فيما أخطأ ..

وكيف خسر معركته ..

ومشاعره ..

يدرك هذا فقط ، عندما تنهار العلاقة ..

وعندما يرحل الحب .

★ ★ ★

١ ـ السـائق ..

« لا .. لن يمكننى احتمال هذا طويلاً .. »

صرخت (مروة) بالعبارة فى غضب ، وهى تندفع داخل ذلك المنزل الفاخر الأنيق ، فى أرقى مكان فى (بيفرلى هيلز) الأمريكية ، فاستقبلها زوجها (أيمن) ، رجل الأعمال المصرى المولد ، والأمريكى الجنسية بابتسامة هادئة ، وكأنما اعتاد غضبها ، وهو يسألها فى بساطة من ألف هذا :

ـ أهو السائق مرة أخرى ؟!

ألقت (مروة) حقيبتها ، على أبعد مقعد من يدها ، وهى تهتف :

ـ إنه أسوأ من عمل لدينا ، منذ هاجرنا إلى هنا .. بليد الفهم .. كسول .. ومكابر أيضًا ، و ... ، و ....

بدا وكأن الكلمات قد تداخلت وارتبكت فى حلقها ، على نحو كتم معه ضحكته فى صعوبة وهو يسألها :

ـ وماذا ؟!

صرخت ، وكأنما تفرغ انفعالها كله :

ـ إنه حتى لا يجيد الإنجليزية .

لم تدر لماذا انفجر ضاحكًا ، على هذا النحو الذى استفزها ، فصرخت فيه فى حدة غاضبة :

ـ هل ألقيت دعابة ما ؟!

أوقف ضحكاته فى صعوبة ، ونهض إليها ، يحتويها بين ذراعيه فى رفق حنون ، وهو يربت على شعرها ، قائلاً :

ـ رويدك ياحبيبتى .. إنه رابع سائق نقوم بطرده ، خلال شهرين فحسب .. فمنذ رحيل (ويلى) ، لم يحظ سائق واحد برضاء .

هتفت فى حدة :

ـ وما ذنبى ، لو أنك لا تحسن اختيارهم ؟

ابتسم ، وطبع قبلة على جبينها ، قائلاً :

ـ تذكرى أنك قمت باختيار آخر سائقين بنفسك .

عقدت حاجبيها ، ومطت شفتيها فى اعتراض ، وكأنما لا يروق لها توجيه اللوم إليها ، فى موقف كهذا ، وقالت مكابرة :

ـ من خلال من انتقاهم مكتبك .

تنهَّد فى إرهاق ، وذهنه يستعيد تلك الرحلة الطويلة ، التى أوصلته إلى ما هو عليه ..

تذكر كيف بدأ حلم الهجرة ، ونما فى أعماقه ، فور تخرجه من الجامعة ، وارتطامه بمصاعب الحياة فى مصر ، وصراع البحث عن مكانة ، وسط جيش من الخريجين ، الذين تقوم الدولة بتوزيعهم على وظائف ، لا تتناسب مع كفاءاتهم ، أو ما حصلوا عليه من شهادات جامعية ، أو خبرات حياتية ..

وطوال العام الوحيد ، الذى عمل خلاله فى وظيفة بسيطة ، فى إدارة هندسية حكومية ، ظل يسعى للحصول على تأشيرة هجرة ، إلى ما بدا له أرض الفرص والأحلام ..

إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

ومع سعيه الدءوب ، ومحاولاته المستمرة ، نجح أخيرًا ، فى أوائل الثمانينيات ، فى تحقيق حلمه ..

وحصل على تأشيرة الهجرة ..

وعلى الرغم من اعتراض والده ، وبكاء أمه ، وحزن شقيقته الوحيدة ، حمل (أيمن) حقيبته منفردة ، جمع فيها أشياءه الرئيسية ، واستقل الطائرة إلى العالم الجديد ..

ومنذ يومه الأول هناك ، واجهته الحقيقة المفزعة ..

(أمريكا) ليست بالجنة التى تصوَّرها ..

إنها على العكس تمامًا ، جحيم رهيب ، يتصارع فيه الكل باستماتة ، للحصول على أية فرصة ..

وبأى ثمن ..

جحيم لا وجود فيه للشهامة ، أو العزة ، أو المودة ، التى ألفها من كل من صادفه أو تعامل معه ..

أما الكرم والتعاطف ، فهما أشبه بالخيال ..

ولأنه يتمتع بإرادة قوية ، وإصرار على الصراع والنجاح ، فقد استنفر كل قوته وقدراته ، وواجه الحياة بكل ما لديه ..

لم تكن البداية سهلة أو هينة ، وإنما جاع ، وتعب ، ونام أحيانًا فى حدائق مفتوحة ، وتمت سرقته مرتين ، قبل أن يحصل على وظيفة متواضعة ، بدخل يكفيه بالكاد ..

وفى شقة حقيرة ، فى حى صغير ، معظم قاطنيه من الفقراء ، قضى عامه ..

ولكنه احتمل ..

واحتمل ..

واحتمل ..

وقبل أن يبدأ عامه الثانى ، ولأنه شديد الإخلاص والتفانى ، تمت ترقيته إلى منصب أكبر ، ولكن بأجر لايزيد كثيرًا عن أجر العام الأول ..

هذا لأنه لم يتجاوز العقبة الكبرى ..

البطاقة الخضراء ..

تلك البطاقة ، التى تبيح له الإقامة والعمل ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى يؤدى عدم حصوله عليها ، إلى أن يعمل بأجر منخفض ، يقل حتى عن الحد الأدنى للأجور ، لكل من يحملها ..

ولما كان الحصول على تلك البطاقة الخضراء أمرًا شبه مستحيل ، فقد نصحه أحد المهاجرين القدامى بنصيحة عجيبة ..

أن يتزوج أمريكية ..

كان هذا يخالف مبادئه ، وكل ما تربى عليه منذ حداثته ..

إلا أنه فعله ..

وتزوج أمريكية ..

لم يكن زواجًا فعليًا ، وإنما كان زواجًا ورقيًا فحسب ؛ لاستكمال كل الإجراءات القانونية ، والحصول على البطاقة الخضراء ، والجنسية فيما بعد ..

ولأن القانون يحتم التيقن من صحة الزواج ، بزيارات مفاجئة ، يقوم بها موظفو مكتب الهجرة ، اضطر للإقامة مع تلك الأمريكية لعدة سنوات ، ابتزته خلالها بأقصى ما أمكنها ، حتى حصل على البطاقة الخضراء ، والحق فى الحصول على الجنسية ، فساومته على الطلاق ، وحصلت على نصف ما يمتلكه مقابله ..

وهكذا ، وبعد خمس سنوات من المعاناة ، وجد نفسه على أول سلمة من سلالم الكفاح الفعلى ..

ولكنها كانت خطوة مباركة ، كما يقولون فى مصر ..

الحصول على الجنسية ، مع خبراته وكفاءته ، منحاه العديد من الفرص ، فى ذلك المجتمع ، حتى إنه قد حصل على وظيفة ممتازة بدخل كبير ، أهله للإقامة فى منزل أنيق ، لأول مرة فى حياته ..

وهنا ، قرر أنه يتزوج بحق ..

وأن يتزوج مصرية ..

وفى زيارة لوطنه مصر ، التقى بابنة خاله (مروة) ، التى كبرت خلال السنوات الخمس ، وأصبحت عروسًا جميلة ، وبسرعة عقد قرانه عليها ، واصطحبها معه إلى منزله الأنيق فى (أمريكا) ..

ولأنها وحيدة والديها ، واعتادت الدلال ، فقد أرهقته بعض الوقت ، فى بداية زواجهما ، إلا أنها كانت قدم خير عليه ، فترقى بسرعة ، وسرعان ما استقل بعمله ، وأنشأ شركته الخاصة ، وأصبح أحد رجال الأعمال المعروفين هناك ، ويمتلك منزلاً فاخرًا ، يقيم فيه مع (مروة) ، وابنتهما الوحيدة (فريدة) ، التى حملت اسم أمه ..

وعلى الرغم من مرور السنين ، ظلت زوجته أشبه بالطفلة المدللة ، كثيرة الغضب والشكوى والعناد ، إلا أن ثروته ، التى تتضاعف باستمرار ، كانت تبيح له تدليلها ، منحها كل ما تريد ، هى وابنته ..

لولا مشكلة السائقين هذه ..

« لماذا لا تنتقين السائق بنفسك هذه المرة ؟! »

طرح السؤال فجأة ، فحدقت فيه مستنكرة ، قبل أن تهتف :

ـ أنا ؟!

أجابها فى حماس :

ـ نعم .. أنت .. لن أنتقيهم من خلال موظفى مكتبى هذه المرة .. سننشر إعلان طلب سائق فى الصحف ، ويتقدم طالبو الوظائف بأوراقهم ، وعليك اختيار من يروق لك منهم .

انعقد حاجباها ، وهى تفكر فى أى سبب للاعتراض ، قبل أن تقول فى صرامة ، ليس لها ما يبررها :

ـ سأختبر مهارتهم فى القيادة أيضًا .

هتف فى ارتياح :

ـ هذا حقك .

ترددت بضع لحظات ، ثم قررت أن تخوض التجربة ، فقالت بمنتهى الحزم :

ـ فليكن .

هتف بكل الحماس :

ـ على بركة الله .. سأطلب نشر الإعلان صباح الغد .

قالها ، وأسرع ينصرف من أمامها ، قبل أن تتراجع فى قولها ، وهو يحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أنها سترفع عن كاهله هذا العبء ، ولن تجد مبررًا واحدًا للومه فيما بعد ..

ولم يدر لحظتها أن هذه هى البداية ..

بداية أعنف تجربة فى حياته ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

٢ ـ المصـــرى ..

كم لامت (مروة) نفسها فيما بعد ، على ذلك القرار العنيد الذى اتخذته ، بانتقاء سائقها بنفسها ..

لقد فوجئت بسيل من الأوراق ينهمر عليها ، حاملاً مئات الأسماء والتفاصيل ، لكل من جذبه الإعلان ، ويرغب فى نيل الوظيفة ، مع رجل أعمال شهير مثل (أيمن) ..

وعلى الرغم من أن ابنتها (فريدة) لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها ، إلا أنها استعانت بها ؛ لفرز وفحص الطلبات ، واختيار مجموعة صالحة للمقابلة والاختيار ..

ولأنها تعانى من مشكلة التواصل ، فقد استبعدت كل السائقين ، الذين ينتمون إلى أصول لاتينية ، أو هندية ، أو عبرانية ..

وهكذا راح عدد الطلبات ينخفض ..

وينخفض ..

وينخفض ..

وفى النهاية ، وبعد أسبوع كامل من البحث والتمحيص ، اتفقت مع (فريدة) على خمسة أسماء فحسب ..

وفى حماس لم تدر له سببًا ، انتقت (فريدة) طلبًا من بينها ، وقالت ملوّحة به لوالدتها :

ـ اختارى هذا .

سألتها (مروة) فى حيرة :

ـ ولماذا هذا بالتحديد ؟!

مالت (فريدة) نحوها ، وأجابتها فى حماس ، ورثته عن أبيها :

ـ إنه مصرى .

ارتفع حاجبا (مروة) ، والتقطت الطلب من بين أصابع ابنتها ، وهى تكرِّر فى دهشة حذرة :

ـ مصرى ؟!

لم تدر لماذا أدهشها هذا ، ولا لماذا شعرت بهذا الحذر ، ولكنها انتبهت إلى أن ماقدمته لها ابنتها كان أكثر الطلبات المقدمة اختصارًا وتركيزًا ؛ إذ كان عبارة عن صفحة واحدة ، تحمل صورة رجل وسيم ، هادئ الملامح ، فى أوائل الأربعينيات من عمره ، مع اسم (أحمد وصفى) ، وشهادة خبرة فى قيادة السيارات ، موقعة من السفير المصرى فى (واشنطن) شخصيًا ، مع كلمات من هذا الأخير ، تشير إلى أن الرجل يستحق كل احترام وتقدير ..

وكان هذا أمرًا عجيبًا بالفعل ، وأثار فضولها إلى أقصى حد ..

من هذا الرجل ، الذى حظى بتقدير واحترام السفير المصرى ، ولكنه يبحث عن عمل كسائق لدى رجل أعمال ؟!

ما الذى دفعه إلى هذا ؟!

ولماذا لم يوظفه السفير نفسه ؟!

كل هذه الأسئلة وغيرها دارت فى رأسها بسرعة ، قبل أن تقول فى اهتمام ، لم تحاول حتى إخفاءه :

ـ فليكن أول من نلتقى به .

هتفت (فريدة) بنفس الحماس :

ـ أردت أن أقترح هذا .

عاودها عنادها وتكبرها ، فلوَّحت بسبابتها ، قائلة :

ـ ولكننا سنختبره فى القيادة ، فإما أن يحوز إعجابى ، أو ...

لم تتم عبارتها ، ولكن (فريدة) أطلقت ضحكة رقيقة ، دفعتها للابتسام بدورها ، والفضول ما زال يملأ نفسها ..

وفى اليوم نفسه ، أجرت اتصالها بالسائق ؛ لتحديد موعد للمقابلة ..

ومنذ اللحظة الأولى ، جذبها صوته الهادئ الوقور ، وراق لها إجادته التامة والواثقة للإنجليزية ، وردوده اللبقة الدقيقة ، فحدَّدت له موعد المقابلة فى اليوم التالى مباشرة ، فى تمام العاشرة ..

وفى العاشرة صباحًا بالضبط ، كان (أحمد) يقف أمامها ، مستعدًّا للمقابلة والاختبار ..

والواقع أنه قد حاز قبولها منذ اللحظة الأولى ، فعلى الرغم من ثيابه البسيطة ، وملامحه الهادئة ، كان يبدو وسيمًا قويًّا ، يطل من عينيه بريق ذكاء واضح ، وتجبرك لهجته الواثقة ، ونبراته القوية الدافئة ، على أن تتعامل معه بمهابة واحترام ، حتى وهو يعمل كسائق لديك ..

كانت ردوده كلها هادئة ، دقيقة ، حاسمة .. ومختصرة ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد أبت عليها طبيعتها العنيدة أن تعلن قبولها له مباشرة ، وإنما قالت ، فى شىء من التعالى :

ـ لو أنك تجيد القيادة بالقدر نفسه ، الذى تجيد به الحديث ، فربما .. أقول ربما أقبل تعيينك .

وهتفت لحظة ، ثم استدركت فى سرعة وحسم :

ـ بعد اختبار باقى المتقدمين بالطبع .

بدا هادئًا للغاية ، وهو يقول مؤمِّنًا :

ـ بالطبع .

ألقت إليه مفاتيح سيارتها ، وهى تقول فى حزم ، ابتسمت له ابنتها :

ـ هيا نرى كيف تقود .

التقط المفاتيح فى بساطة واضحة ، وغادر المكان ، دون أن يسألها أية سيارة لها ، وتوقف لحظة فى الساحة الخارجية ، أدار خلالها بصره ، بين السيارات الثلاث المتوقفة ، قبل أن يتجه نحو السيارة البيضاء ، فانعقد حاجبا (مروة) فى توتر ، فى حين مالت (فريدة) نحوها ، وهمست فى إعجاب واضح :

ـ من الواضح أنه ذكى للغاية .

أجابتها فى صرامة مفتعلة :

ـ لا تتسرعى .

ابتسمت (فريدة) فى خبث ، واتجهت نحو السيارة البيضاء ، التى فتح (أحمد) بابها الخلفى ، وانتظر ركوبها فى هدوء ، ولكنها لم تستطع كتمان فضولها ، فسألته قبل أن يغلق الباب خلفهما :

ـ كيف عرفت أن هذه سيارة أمى ؟!

أجاب فى بساطة وهدوء :

ـ ديكورات منزلكم توحى بأن والدتك تعشق اللون الأبيض ، ثم إنها كانت السيارة الوحيدة ، التى يناسب طرازها سيدة فى مستواها ..

ازداد انعقاد حاجبى (مروة) ، وكأنما لم يرق لها هذا ، فى حين مالت (فريدة) على أذنها ، هامسة :

ـ ألم أقل لك ؟!

ولم تجب (مروة) بحرف واحد ، وإنما ظلت صامتة داخل السيارة ، التى قادها (أحمد) بمنتهى البراعة والهدوء والثقة ، على نحو يشف عن سائق بارع متمكن ، حتى إنها على الرغم من طبيعتها ، لم تستطع معاتبته على أمر واحد ، حتى عاد بهما إلى المنزل ، فهتفت (فريدة) بأمها فى حماس :

ـ متى سيتسلم العمل ؟!

رمقتها (مروة) بنظرة صارمة ، وقالت :

ـ بعد أن نختبر الباقين .

لم تكن تشعر بحاجة فعلية إلى هذا ، إلا أنها أصرت على اختبار الباقين ، قبل أن تصل فى النهاية إلى القرار الذى اتخذته فى البداية ..

وتسلَّم (أحمد) عمله ..

ولم تندم على هذا قط ..

زوجها (أيمن) نفسه شعر بالدهشة ، عندما سمعها لأول مرة فى حياتها ، تمتدح سائقًا عمل لديهم ..

وأدرك أنها قد وقعت على من يتناسب معها تمامًا ..

فى البداية أسعده هذا ؛ لأنها ستتوقف عن الشكوى والتذمُّر ، إلا أنه لم يلبث أن رصد انبهارها به ، وشغف ابنته الشديد بالتحدث إليه ، وقضاء الوقت معه ، ولاحظ كيف يعامل (أحمد) الجميع بهدوء وتهذيب ، وكيف يحسن الاستماع إليهم ، وإسداء النصح لهم ..

ومع الوقت ، بدأ يشعر بالغيرة من السائق ..

وراودته فكرة طرده من العمل ..

ولأن هذا يدور فى رأسه طوال الوقت ، أصبحت معاملته مع (أحمد) جافة ، سخيفة ، متسلطة ، وكأنه يتمنى أن تثور كرامته ذات يوم ، فيستقيل ، ويريحه من كل توتراته وقلقه ..

ولكن (أحمد) استقبل الأمر على نحو مدهش ، فقد تجنب الاحتكاك برجل الأعمال ، وحافظ على صبره وهدوئه وتماسكه ، و ....

وأثار هذا حفيظة (أيمن) أكثر وأكثر ..

واتخذ قرارًا حاسمًا بطرد (أحمد) ، حتى يحسم هذا الأمر للأبد ، حتى لو غضبت زوجته ، أو تحطم قلب ابنته ، التى أصبحت تقضى مع السائق ضعف ما تقضيه معه هو من وقت .

ولكن فجأة ، حدث تطوّر خطير فى حياته ، قلب الأمور كلها رأسًا على عقب ، وأنساه مشكلة سائقه ..

مؤقتًا ..

فمع نجاح أعماله ، وذيوع صيته ، أسندت إليه وزارة الدفاع الأمريكية مهمة تطوير بعض مطاراتها الحربية ، فى (لوس أنجلوس) ..

وكانت هذه أضخم صفقة تجريها شركته ، أو أية شركة أمريكية منافسة ، منذ أكثر من ربع قرن ؛ لذا فقد قفزت سعادته إلى الذروة ، وعقد عدة اجتماعات مع مسئول شركته ، لوضع أسس بدء المشروع .. وهنا بدأت الأمور تتخذ مسارًا جديدًا ..

وعنيفًا ..

فى البداية ، تلقّى خطابات تهديد غير موقعة ، تنذره بالانسحاب من الصفقة ، وإلا تعرَّض هو وأسرته للخطر ..

وتجاهل (أيمن) تلك التهديدات ..

تجاهلها ..

وتجاهلها ..

وتجاهلها ..

حتى كان ذلك اليوم ، الذى تعرَّض فيه لمحاولة فعلية ..

محاولة قتل ..

★ ★ ★

٣ ـ المجرمون ..

كانت ليلة من ليالى الشتاء ، انهمرت فيها الأمطار فـى غزارة غير مسبوقة ، حتى بدت الرؤية متعذرة أمام عينى (أيمن) ، الذى اعتاد قيادة سيارته بنفسه ، ربما كجزء من شخصيته ، التى لا تسمح للآخرين باحتلال مواقع القيادة ، فى أى أمر يخص حياته ، ولقد اضطره هذا إلى القيادة بسرعة بطيئة نسبيًا ، خشية أن تنزلق سيارته إلى تلك الهاوية شديدة العمق ، التى يمر بها يوميًا ، فى طريقه من الشركة إلى المنزل ..

ثم فجأة ، ظهرت تلك السيارة ..

سيارة قوية ، من سيارات الدفع الرباعى ، انطلقت تتجاوزه ، بسرعة لاتتناسب مع الطرق الزلجة ، حتى إنها أثارت خوفه هو شخصيًا ، قبل حتى أن تنحرف بحركة حادة ، لتعترض طريقه بغتة ..

وبمنتهى الذعر والتوتر ، انتقلت قدمه إلى دوّاسة الفرامل ، وضغطها على نحو فقدت معه السيارة توازنها ، وانزلقت على الطريق بزاوية مخيفة ، جعلتها تندفع نحو الهاوية ، وهو يصرخ ..

ويصرخ ..

ويصرخ ..

ثم ارتطمت السيارة بذلك الحاجز المعدنى ، الذى يحمى الحافة ، فى تلك المنطقة ..

ورفع هو ذراعه ، ليحمى وجهه وجسده ، وحياته كلها تمر أمام عينيه كشريط سينمائى متصل سريع ، توقف عند صورتى زوجته وابنته ..

ولوهلة ، بدا له أن سيارته ستهوى من حالق ، وترتطم بالصخور الحادة ، التى ستمزقها وتسحقها ، قبل أن تنفجر ، كما يشاهد فى أفلام الحركة العنيفة ..

إلا أن هذا لم يحدث ..

لقد ارتطمت السيارة بالحاجز ، وانبعج جانبها فى عنف ، إلا أنها لم تسقط ، ولم تنفجر ..

فقط علقت هناك ..

عند طرف الحافة ..

وعلى الرغم من هذا ، لم يتوقف (أيمن) عن الصراخ مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وعندما توقف ، ورفع ذراعه عن وجهه ، انتفض جسده كله بمنتهى الرعب ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى فوهة مسدس ، مصوَّبة إلى رأسه مباشرة ، وخلفها وجه رجل أصلع غليظ الملامح ، يبتسم ابتسامة وحشية شرسة ، وهو يجنب إبرة المسدس ..

وشهق (أيمن) ..

وانتفض ..

ثم تجمد فى مكانه ..

وضغط الأصلع الزناد ..

وسمع هو تكة الإبرة ، وهى ترتطم بالقاذف ..

وأغلق عينيه فى قوة وذعر ..

ولكنه لم يسمع صوت الرصاصة ..

فقط تلك التكة ، التى أعقبتها ضحكة وحشية ساخرة من الأصلع ، الذى تراجع فى بطء ، ليظهر من خلفه رجل أنيق قوى البنية ، قال فى هدوء مخيف ، وهو يحمل مظلة جلدية بيضاء :

ـ يمكنك أن تعتبر هذه مجرد (بروفة) .. فى المرة القادمة سنؤدى المشهد كاملاً ..

وفهم (أيمن) ما يعنيه الأنيق على الفور ..

وتجمَّد فى مكانه ..

واتسعت عيناه ، حتى بلغتا أقصاهما ..

وفى هدوء ، وبإشارة من يده ، عاد الأنيق مع الأصلع إلى السيارة ، التى انطلقت بهما على الفور ، عائدة من حيث أتت ..

أما (أيمن) ، فقد ظل جامدًا داخل سيارته لربع ساعة كاملة ، قبل أن يدير محركها بيد مرتجفة ، وينطلق بها بأدنى سرعة ممكنة ، عائدًا إلى منزله ، حيث حاول إقناع الكل ، حتى رجال الشرطة أنفسهم ، بأن ما حدث مجرد انزلاق على طريق مبتلة ، بسبب الأمطار الغزيرة ..

(أحمد) وحده لم يقتنعه هذا ..

صحيح أنه لم يبد اعتراضًا ، أو حتى يناقش الأمر ، إلا أن (أيمن) رآه يفحص إصابة السيارة فى إمعانٍ ، ثم يقف إلى جوارها مفكرًا فى عمق شديد ، وكأنما أدرك شيئًا ما ..

ولقد ظل (أيمن) مذعورًا مما حدث لأسبوع كامل ، نسى خلاله أمر سائق زوجته ، ولم يعد يفكر سوى فى تلك الصفقة الدفاعية الضخمة ، وما يحدث للاستيلاء عليها ، وراودته فكرة إبلاغ مسئولى وزارة الدفاع بما حدث ، إلا أنه أدرك أنه بدون دليل ، لن يمكنه أن يحظى بأية حماية وفقًا للنظام الأمريكى ..

ثم إن التهديدات توقفت بعد حادثة السيارة ..

وبدا وكأن الأمور كلها قد هدأت ..

وكان عليه أن ينسى الأمر ، وأن يواصل عمله ، حتى لا يخسر أضخم صفقة فى حياته ، بسبب خوف بدائى بسيط ..

وعاد يجتمع بفريق العمل ، لمواصلة التخطيط لعملية تجديد المطارات ..

ونسى الأمر بالفعل ..

و ...

« (أيمن) .. (فريدة) لم تعد إلى المنزل .. »

صرخت (مروة) بالعبارة فى أذنه عبر الهاتف ، وصوتها يحمل كل ذعر وهلع الدنيا ، فصاح بها ، والانفعال يكاد يعصف بنفسه :

ـ كيف هذا ؟! وأين (أحمد) ؟! أين ذلك الخامل الكسول ؟! كيف تركها ؟!

أجابته (مروة) باكية مذعورة :

ـ لاشأن للسائق بالأمر .. (فريدة) إنه يوم السبت ، وهى لم تذهب إلى المدرسة .

ارتبك بشدة ، وهو يغمغم :

ـ السبت ؟!

صاحت به :

ـ نعم السبت .. منذ بدأ مشروعك السخيف هذا ، لم تعد تمنحنا حتى أيام الإجازات .. لم تعد حتى ...

صرخ بها :

ـ ليس هذا وقت العتاب .. أين (فريدة) ؟!

أجابته ، وقد استعاد صوتها دموعه :

ـ لقد ذهبت لزيارة صديقتها (لورا) ، فى المنزل المجاور ، وعندما تأخرت ، ذهبت للسؤال عنها ، فأجابونى أنها قد انصرفت منذ فترة طويلة ، ولكنها لم تعد إلى المنزل .. لقد فقدناها يا (أيمن) .. فقدناها .

صرخ فيها :

ـ إياك أن تنطقيها .. أبلغى الشرطة فورًا .. أنا فى طريقى إلى المنزل بأقصى سرعة .

هتفت به مرتجفة :

ـ أسرع بالله عليك .. أسرع .

أنهت المحادثة ، ووضعت سماعة الهاتف ، واستدارت لتجد (أحمد) أمامها مباشرة ..

وشهقت (مروة) ..

فلوهلة ، بدا لها ذلك الواقف أمامها مختلفًا تمامًا عن ذلك السائق ، الذى عرفته خلال الأشهر القليلة الماضية ..

كان يبدو أكثر صرامة ، وأغزر قوة ، كما بدا بقامته الممشوقة وبنيته القوية ، وتلك النظرة الغاضبة فى عينيه ، أشبه بعملاق أسطورى ، وهو يسألها :

ـ أحقًا ما سمعت ؟!

عادت تلتقط سماعة الهاتف ، وهى تقول فى انهيار :

ـ نعم .. نعم .. (فريدة) مفقودة .. (فريدة) لم تعد إلى المنزل .

واستدارت تطلب رقم الشرطة ، قبل أن تلتفت إليه ، هاتفة :

ـ أطلب من الـ ....

ولم تتم عبارتها ..

فخلال اللحظة التى أبعدت نظرها فيها عنه ، اختفى (أحمد) .. اختفى تمامًا ..

وقبل أن تتساءل أين ذهب ، سمعت صوت مسئول الشرطة عبر الهاتف ، وهو يسألها :

ـ أية خدمة يمكننى تقديمها .

صرخت عبر الهاتف :

ـ ابنتى مفقودة .

راح مسئول الشرطة يلقى عليها أسئلته التقليدية السريعة ؛ لاستكمال بياناته ، وهى تجيبه فى توتر بالغ ، وعيناها تنفذان عبر زجاج الشرفة المواجهة لها ، بحثًا عن سائقها ..

عن (أحمد) ..

ثم فجأة ، لمحته هناك ..

عند طرف ذلك الطريق ، الذى يوصل منزلها بمنزل والد (لورا) ..

كان منحنيًا ، يفحص الطريق بمنتهى الدقة ..

وامتلأت نفسها بدهشة ما بعدها دهشة ..

وبكل انفعالها ، وجدت نفسها تطرح داخلها سؤالاً مخيفًا ..

ترى من هو سائقها حقًا ؟!

من هو ؟!

من ؟!

* * *

٤ـ اختطـــاف ..

فى وقت واحد تقريبًا ، وصل (أيمن) ورجال الشرطة إلى المنزل ، وبدأت التحقيقات على الفور ..

وكعادة الشرطة الأمريكية ، بدأت الأسئلة حول طبيعة (فريدة) ، وعلاقتها بأبويها ، وما إذا كانت تتعرض للإيذاء البدنى ، أو العقاب المبالغ ، أو غاضبة بسبب مرورها بمرحلة المراهقة ، وحول أصدقائها ، ورفاق دراستها ، وارتباطاتها ، وميلها إلى المخدرات من عدمه ..

ولقد استغرقت هذه الأسئلة عشرين دقيقة كاملة ، حتى صرخت (مروة) فى غضب :

ـ هل ستبحثون عن ابنتى ، أم إننا سنقضى اليوم كله فى برنامج سؤال وجواب هذا .

رمقها مفتش الشرطة بنظرة باردة ، وهو يقول :

ـ اهدئى يا سيدتى .

صرخت مستنكرة :

ـ أهدأ ؟! هل تطالبنى بأن أهدأ ؟! قل لى يا هذا .. ألديك أبناء ؟!

أجابها بنفس البرود :

ـ بالطبع .. ولكن مهنتى علمتنى أن معظم حالات اختفاء المراهقين تعود إلى هروبهم المؤقت من المنزل ؛ بسبب اضطراب هرموناتهم ، و ...

قاطعه (أيمن) فى عصبية :

ـ لا علاقة للأمر بالهرمونات .

تبادل المفتش نظرة مستهترة مع مساعده ، فتابع (أيمن) فى حدة :

ـ بل ربما كانت له علاقة بعملى .

انتبه المفتش إلى قوله ، وسأله :

ـ وما طبيعة عملك بالضبط .

وهنا لم يعد هناك مفر من الإفصاح ..

وروى (أيمن) ..

روى كل شىء عن الصفقة ..

والتهديدات ..

وحادثة السيارة ..

كل شىء ..

وبكل الذهول والرعب ، حدقت فيه (مروة) ، قبل أن تصرخ غاضبة :

ـ أأخفيت عنا كل هذا ؟! كيف تجرؤ ؟!

أشاح هو بوجهه فى توتر ، فى حين انعقد حاجبا المفتش ، وهو يقول فى صرامة :

ـ فى هذه الحالة يختلف الأمر كثيرًا .. لابد وأن نتصل بالشرطة الفيدرالية ووزارة الدفاع .

ثم التفت إلى مساعده ، هاتفًا :

ـ استجوب كل العاملين هنا ، وابدأ بأقربهم إلى الفتاة المفقودة .

هتفت (مروة) :

ـ سائقنا (أحمد) هو أقرب الناس إليها .

استدار إليها المفتش بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ (أحمد) ؟! أهو عربى ؟!

قال (أيمن) فى توتر :

ـ بالطبع .. إنه ..

لم يستمع إليه المفتش ، وهو يغمغم :

ـ آه .. عربى .. هذا واضح .

ثم رفع سبابته ، مستطردًا فى حزم :

ـ أراهنكم أننا لن نجده هنا الآن .

لم تدر (مروة) لماذا وجدت نفسها تقول فى حماس :

ـ خطأ .. إنه هنا ، يفحص الـ ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، وبصرها يعبر زجاج الشرفة ، ويستقر حيث كان يقف (أحمد) ، فاستدار المفتش يتابع نظرتها لحظة ، قبل أن يتساءل ، فى شىء من التحدّى :

ـ يفحص ماذا ؟!

ولم تجب (مروة) ..

فعلى امتداد بصرها ، لم يكن هناك أثر لسائقها ..
أدنى أثر ..

* * *

« أبى .. هل ستبقى معنا هذه المرة ؟! »
تردّدت العبارة فى جزء مظلم ، من ذاكرة (أحمد) ، وهو يفحص ذلك الممر الضيق ، بين منزل (أيمن) ومنزل (لورا) ..
استعادها بصوت طفلة صغيرة ، وبلهجة تحمل كل الأمل والضراعة ..
وفى ذهنه ، ارتسمت صورتها ، وهى تبتسم ..
وتصرخ فى مرح ..
وتهرع إليه ..
وفى أعمق أعماق قلبه ، ضربت قبضة من ثلج ..
ونبضت فى عروقه ..
ومشاعره ..
وكيانه كله ..
وبكل ما يمتلك من إرادة فولاذية ، قاوم هذا الألم المنبعث من كل خلية فى قلبه وعقله ..
قاوم ، وهو يستنفر كل معلوماته وخبراته القديمة ..
تلك الآثار تشير إلى توقف سيارة كبيرة ، من سيارات الدفع الرباعى ، وخروج شخصين منها ، فى حركة سريعة ..
وها هى ذى آثار قدمى (فريدة) ..
لقد هاجماها ..

وسيطرا عليها ، بعد مقاومة متخاذلة ؛ بسبب فارق القوة الكبير ..
وبعدها حملها أحدهما إلى السيارة ..
آثار قدميه فى الإياب ، أكثر عمقًا منها فى الذهاب ..
وبعدها انطلقت السيارة ..
نحو الشرق ..
نهض يتطلع إلى الطريق ، الذى انطلقت فيه السيارة حتمًا ، وذهنه المرتب يدرس الموقف ، ويحاول رسم صورة للأحداث ..
وبتداع ذكى ، ربط كل هذا باضطراب (أيمن) ، فى الآونة الأخيرة ، وبحادث سيارته ، الذى أثار شكوكه منذ البداية ..
وتوصّل إلى استنتاج حاسم ..
(فريدة) اختطفت ..
اختطفها رجال ، كانوا يهددون والدها منذ فترة ..
رجال يستحقون العقاب ..
كل العقاب ..
طبيعته القديمة كانت تدفعه للحصول على أقوى سلاح ، فى أى صراع ..
سلاح المعلومات ..
كان يحتاج إلى إلقاء العديد من الأسئلة ..
والحصول على العديد من الأجوبة ..
ودون تردُّد ، اتجه نحو المنزل ؛ لسؤال (مروة) عن بعض الأمور ..
ورأى (أيمن) يصل ..

مع رجال الشرطة ..

ولقد أوقفه هذا دفعة واحدة ..

فلسبب ما ، لم يكن يرغب فى الاحتكاك برجال الشرطة ..

ليس فى تلك الفترة على الأقل ..

لذا فقد تراجع ..

وانسحب ..

ولدقيقة واحدة ، أدار الأمر فى رأسـه ، وأجرى كل حساباته ، واتخذ قراره ..

ووضعه موضع التنفيذ ..

ودون أدنى تردد ، استقل السيارة الرياضية الصغيرة ، ذات السقف المكشوف ، والتى يدخرها (أيمن) لأيام الإجازات ، وانطلق بها مبتعدًا عن المنزل ، وكل ذرة فى كيانه تفكر فى أمر واحد ..

سيستعيد (فريدة) بإذن الله ..

سيستعيدها ، مهما كانت التضحيات ..

ومهما كان الثمن ..

« كنت أعلم أنه سيفر من هنا .. »

نطقها المفتش فى ثقة ، وهو يلتقط هاتفه المحمول ، فقالت (مروة) فى عصبية :

ـ ولماذا افترضت أنه فر ؟!

أجابها مساعده فى حزم :

ـ سيِّدتى .. حاولى أن تدركى الأمر جيدًا .. إنك لا تعلمين شيئًا عن سائقك هذا ، سوى أنه دمث الخلق ، ويجيد القيادة ، ولكنه اختفى بعد اختفاء ابنتك ، وسرق سيارتكم الرياضية أيضًا ، فماذا تتوقعين إذن ؟!

تردَّد (أيمن) لحظة ، بدت (مروة) خلالها مبهوتة ، قبل أن يقول فى توتر شديد :

ـ هل تظن حقًا أن ..

قاطعه المفتش فى حزم :

ـ أراهنك أنه جعل ابنتك تتعلق به كثيرًا ، فى فترة عمله هنا .. أليس كذلك ؟!

فغرت (مروة) فاها ذاهلة مذعورة ، فى حين غمغم (أيمن) ، فى صوت خرج على الرغم منه مرتجفًا :

ـ رباه .. هذا صحيح .

تبادل المفتش نظرة ظافرة واثقة مع مساعده ، وهو يضغط أزرار هاتفه المحمول ، قائلاً :

ـ ألم أقل لكما ؟!

ثم رفع الهاتف إلى أذنه ، قائلاً فى صرامة :

ـ هنا المفتش (مارك) .. أريد إطلاق نشرة عن إرهابى .. إرهابى عربى .

واتسعت عينا (مروة) أكثر ..

وسقط قلبها بين قدميها ..

بمنتهى العنف .

* * *

٥ ـ الإرهـــابى ..

من العسير للغاية أن تترك سيارة قوية آثارًا تكفى لتتبعها ، عندما يكون أصحابها من المحترفين ، الذين ارتكبوا جريمة اختطاف ، يعاقب عليها القانون الفيدرالى الأمريكى ، بمنتهى الصرامة والشدة ..

ولكنها أيضًا لن تتلاشى فى العدم ..

هناك دائمًا علامة ما ..

أو لمحة ما ..

أو شاهد ما ..

وكل ما يحتاج إليه الأمر هو خبير ..

خبير من طراز خاص جدًا ..

وعلى الرغم من أن (أحمد) كان يقود سيارة رياضية قوية ، تتجاوز سرعتها القصوى المائتى كيلومتر فى الساعة ، إلا أنه انطلق بها بسرعة بطيئة نسبيًا ، وعيناه ترصدان الطريق بمنتهى الدقة ..

والحنكة ..

والخبرة ..

كان فحصه لذلك الممر قد أنبأه أن السيارة ، التى استخدمت فى الاختطاف من سيارات الدفع الرباعى القوية ، والمسافة بين إطاريها العريضين يوحى بأنها من طراز (جيب) أو (لاندروفر) ،

أما احتكاكها بطرف السور ، مع ابتعادها السريع ، فقد ترك لمحة من طلاء أسود ..

هو يبحث إذن عن سيارة رباعية الدفع ، سوداء اللون ، من أحد الطرازين ، وبداخلها رجلان على الأقل ، وبصحبتهما فتاة ..

والأرجح أنها ستكون فاقدة الوعى ..

أو مخدرة ..

ولتفادى الشكوك والفضول ، سيجعلها المختطفون تبدو كالنائمة ..

انعقد حاجباه ، وهو يستعيد كل خبراته ، عن عالم الجريمة ، ويضع عقله كله فى حالة تقمص كامل لموقف المختطفين ..

وبين الحين والآخر ، كان يتوقف لسؤال المتاجر ، أو محطات الوقود ، وبخاصة فى تفرعات الطرق المختلفة ..

وكم أدهشته حالة الاستهتار ، التى يتصرف بها المختطفون ..

وكم أثارت حذره وشكوكه ..

ففى كل مكان توقف به ، كان هناك أثر ما ..

ثلاثة شهود على الأقل ، رصدوا سيارة (جيب) سوداء ، بداخلها رجلان ، أحدهما أصلع ضخم ، والآخر أنيق على نحو مبالغ ، وامرأة شقراء ، قاسية الملامح ، وفتاة نائمة ، أشارت المرأة إلى أنها تعانى من نزلة برد حادة ..

وكل شاهد منهم ، أرشده إلى مسار السيارة ..

حتى نقطة ، توقفت عندها الآثار تمامًا ..

ولا شهود فيها على الإطلاق ..

وهنا ، توقف (أحمد) ..

وعاد يفكّر بمنتهى الدقة ..

الذين ارتكبوا الاختطاف من المحترفين حتمًا ..

فلماذا يتصرفون كالهواة ؟!

لمـاذا ؟!

توقف طويلاً عند هذه النقطة ، وراح يدرسها من كل الوجوه ، قبل أن يعود أدراجه بالسيارة ، وقد استقرت فى وجدانه فكرة بعينها ..

ما دامت الآثار قد انقطعت ، من نقطة إلى أخـرى ، فهذا يعنـى أن تلك (الجيب) قد اختفت هناك ..

بين النقطتين ..

هناك حتمًا محطة توقف ..

أو مخبأ ..

أو طريق فرعى ، يقود إلى مكان ما ..

وبعين فاحصة خبيرة ، راح يرصد كل متر من الطريق ..

بل كل شبر ..

ثم فجأة ، تناهى إلى مسامعه صوت مميّز ..

صوت أبواق سيارة شرطة تقترب ..

بل سيارتين ..

وانتبهت كل حواسه دفعة واحدة ..

واعتدل بمنتهى الانتباه ..

وفى اللحظة نفسها ، ظهرت سيارتا الشرطة ..

وانقضتا عليه ..

مباشرة ..

ولم يكن الأمر يحتـاج إلى الكثير من الذكاء ، ليدرك أنهمـا لـم تأتيا للمساعدة ..

بل للهجوم ..

الشامل ..

★ ★ ★

« لقد عثرنا عليه .. »

نطقها المفتش فى ظفر ، وهو يخفض هاتفه المحمول عن أذنـه ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب ، جعل (مروة) تتساءل فى عصبية :

ـ أليس من الأفضل أن تعثروا على (فريدة) ؟

بدت ابتسامة المفتش مستفزة ، وهو يقول فى ثقة :

ـ من الواضح أن معلوماتك الأمنية منخفضة للغاية يـا سيِّدتى .. العثور على ذلك الإرهابى ، يعد الخطوة الأولى ، للعثور على ابنتك .

تساءل (أيمن) فى توتر ، وهو يضم زوجته إليه ، محاولاً تهدئتها ، على الرغم مما يشعر به :

ـ وكيف هذا ؟!

أجابه المساعد فى شىء من الضجر ، وكأنه ملول من جهله بأبسط قواعد الأمن :

ـ ما دام ذلك السائق هو المسئول عن اختفاء ابنتك ، فالعثور عليه هو أول الـ ....

قاطعه (أيمن) ، فى شىء من الحدة :

ـ ولماذا افترضتم هذا ؟!

مطَّ المفتش شفتيه ، وقال :

ـ أظنه أمرًا واضحًا للغاية ..

قالت (مروة) فى غضب :

ـ لم لا أراه كذلك إذن ؟!

أجابها المفتش فى صرامة :

ـ لأنك قصيرة النظر يا سيِّدتى .. وقصر نظرك هذا جعلك لاتنتبهين لما خططه ذلك الإرهابى ، عندما بدأ يتقرب من ابنتك ..

قالت فى عناد :

ـ (أحمد) ليس إرهابيًا ، ولا يمكن أن يكون كذلك .

سألها فى سخرية صارمة :

ـ ولِمَ لا ؟! ألأنه وسيم ، حلو اللسان ؟!

قالت فى حدة :

ـ بل دعنى أتساءل أنا : ولِمَ نعم ؟! ألمجرد أنه عربى ؟!

بدا من الواضح ، من انتفاضة جسده الحادة ، أن عبارتها قد أصابته فى الصميم ، قبل أن ينعقد حاجباه ، فى غضب ما بعده غضب ، ويقول فى شراسة ما لها من مثيل :

ـ هل سنجلس هنا لمناقشة سياستنا تجاه الشرق الأوسط ، أم ندخر جهدنا ؛ للبحث عن ابنتك المفقودة ؟!

أجابته فى حدة أكثر :

ـ بل كنت أفضل أن ندخر الجهد ، بدلاً من إهداره فى مطاردة شخص شريف ، فقط لأنه عربى ، أو لأنه ...

قاطعها فى غضب شديد :

ـ كيف تفسرين اختفاءه ، واستيلاءه على سيارتكما إذن ؟!

بهتت (مروة) ، واشتعل عقلها بالسؤال ، فانكمشت بين ذراعى زوجها ، الذى عاودته توتراته تجاه (أحمد) ، فغمغم :

ـ لست أجد تفسيرًا منطقيًا لهذا .

أشار المفتش إلى صدره ، هاتفًا :

ـ أما أنا ، فلدى تفسير واضح للغاية .

ومال نحو (أيمن) ، حتى شعر هذا الأخير بأنفاسه الكريهة تلهب أنفه ، وهو يستطرد بكل الشراسة :

ـ إنه إرهابى .

وفى هذه المرة ، وعلى الرغم من عدم اقتناعها ، لم تنطق (مروة) بحرف ..

حرف واحد ..

* * *

الموقف تعقد فجأة ، دون سابق إنذار ..

سيارتا الشرطة ظهرتا كوحشين ثائرين ، ينقضان على فريسة منفردة ، فى شراسة شديدة ..

ولأنه استوعب الموقف كله دفعة واحدة ، أدرك (أحمد) أن التوقف ، ومحاولة توضيح الأمر ، سيؤدى إلى عواقب عديدة ..

وعنيفة ..

واحتكاكه برجال الشرطة ، لن يفيده فى هذه المرحلة ..

بل سيعيقه حتمًا ..

سيعيقه عن البحث عن (فريدة) ..

وإنقاذها ..

لذا ، فقد اتخذ قراره ، وضغط دوّاسة الوقود ، وانطلق بالسيارة الرياضية ، بسرعة متزايدة ..

وانطلقت خلفه سيارتا الشرطة ..

ولأن سيارته ، على الرغم من صغر حجمها ، مزوّدة بمحرك سباق خاص ، يميّز طرازها الرياضى ، فقد راحت المسافة التى تفصله عن سيارتى الشرطة تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

و ....

وفجأة ، ومع أول منحنى ، وجد أمامه ثلاثة حواجز معدنية ثقيلة ، تسد الطريق تمامًا ، وخلفها أربع سيارات شرطة إضافية ..

وكان هذا يعنى أنه قد وقع فى فخ ..

فخ محكم ..

* * *

٦ ـ مطاردة ..

تألّقت عينا المفتش الأمريكى ، فى زهو ظافر عجيب ، كما لو أنه يحيا أسعد لحظات حياته ، وهو يغلق هاتفه ، ويلتفت إلى (أيمن) و(مروة) ، قائلاً :

ـ لقد حاصروه .

ازداد انعقاد حاجبى (مروة) وتوترها ، فى حين غمغم (أيمن) ، دون حتى أن يدرى :

ـ حقًا ؟!

اتسعت ابتسامة المفتش ، وبدا أشبه بممثل مسرحى من الدرجة الثالثة ، وهو يجيب :

ـ هل كنت تتصورّ أن إرهابيًا عربيًا ، يمكن أن يفلت من القبضة الأمريكية القوية ؟!

هتفت به (مروة) فى حدة :

ـ يبدو أنك قد نسيت الهدف الرئيسى ؛ لوجودك هنا .

أجابها المفتش ، بمنتهى الخشونة :

ـ كلاَّ .. لم أنس .

ثم شد قامته ، والتقى حاجباه فى صرامة ، وهو يضيف :

ـ إنها مسألة وقت يا سيِّدتى .. مسألة وقت .

ولم يقنعها قوله هذا ..

ولا بحرف واحد ..

* * *

لم يكن تجاوز ذلك الحاجز ممكنًا ..

هذا أول ما قدره (أحمد) ، بخبرته الطويلة فى هذا المجال ..

فهناك قواطع حديدية ..

وفوهات بنادق آلية ..

ورجال شرطة متحفزون ..

وسيارتان تطاردانه ..

ومن الواضح أن الكل مصرّ على الإيقاع به ، مهما كان الثمن ..

وهو لا ينوى الاستسلام ..

وأيضًا مهما كان الثمن ..

لذا ، فقد واصل انطلاقته نحو الحاجز ، فتحفز رجال الشرطة خلفه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم صوّبوا بنادقهم ..

وأطلقوا النار ..

ولم يدر أحدهم كيف حدث هذا التوافق المدهش ، ولكن فى نفس اللحظة ، التى ضغطت فيها سبّاباتهم أزندة البنادق ، انحرف (أحمد) بالسيارة ، فى حركة حادة مباغتة ..

وأصابت الرصاصات جسم السيارة ..

وتجاوزتها بعضها ، إلى سيارتى الشرطة خلفها ..

ووثبت السيارة الرياضية ، خرج حدود الطريق ، فى مشهد رهيب ، وانزلقت بين صفين من الأشجار ، واحتكت بجذوعها القوية ، فى تتابع له دوى مخيف ، قبل أن تنقلب مرتين ، وتختفى عن الأنظار تمامًا ..

ولثانية أو ثانيتين ، تجمَّد رجال الشرطة مبهوتين ..

حتى السيارتين المطاردتين توقفتا دفعة واحدة ، وإطاراتهما تطلق صريرًا رهيبًا ..

ولثانية إضافية ، تجمَّد المشهد كله ، كما لو أنه لوحة طبيعية صامتة ..

ثم فجأة ، دب فيه نشاط مدهش ..

جلبة ، وحركة ، وصيحات ، ووقع أقدام تعدو ، نحو البقعة التى اختفت عندها السيارة ..

وخلال ثوان قليلة ، كان الكل يحيط بالسيارة الرياضية المقلوبة ، ويصوِّب إليها أسلحته فى تحفُّز ، و ....

ولكن الأمر لم يكن بالبساطة التى يتصورونها ..

فعلى الرغم من كل ما تصوَّروه ، كانت فى انتظارهم مفاجأة .. مفاجأة مدهشة ..

★ ★ ★

« اختفى ؟!. »

هتف المفتش بالكلمة ، بكل دهشة وذعر وانزعاج الدنيا ، وعيناه تفصحان عما يدور فى أعماقه ..

وتفجر فى أعمق أعماق (مروة) غضب بلا حدود ..

ابنتها الوحيدة مفقودة ، وكل ما يقاتل ذلك الأمريكى من أجله ، هو أن تتصدر صورته صحف الغد ، باعتباره البطل ، الذى أنقذ (أمريكا) كلها من إرهابى ..

عربى ..

الجزء الأخير ضاعف من حنقها وسخطها ، ودفعها إلى أن تهتف بمنتهى الحدة :

ـ سأتقدَّم بشكوى .

انتفض المفتش ومساعده فى عنف ، والأول يهتف بها مستنكرًا وغاضبًا :

ـ بشأن ماذا ؟!

صاحت :

ـ هذا الاستهتار .. إنكم تنشغلون بمطاردة وهم فى رءوسكم ، وتهملون ابنتى .

صاح بها المفتش فى غضب :

ـ لا تحاولى تعليمنا كيف نمارس عملنا .

قالت متحدية .

ـ لم ولن أحاول هذا .. كل ما سأفعله هو أن أتقدم بشكوى لرؤسائكم .

انعقد حاجبا المساعد فى حدة ، وتبادل نظرة صامتة غاضبة مع رئيسه وحاول (أيمن) تهدئتها ، إلا أنها تابعت فى حدة :

ـ وسأبلغ الصحف .

ازداد انعقاد حاجبى المفتش فى شدة ، وهو يقول :

ـ الصحف ؟! ولِمَ لا ؟!

ثم التفت إلى مساعده ، وكأنه لا وجود لها ، وتابع فى صرامة :

ـ أرسل صورة ذلك الإرهابى إلى الصحف .. وإلى كل قنوات التلفزيون الفيدرالية والمحلية .. أريد نشرة كاملة بشأنه ، خلال أقل من ساعة واحدة .

قال المساعد فى حماس :

ـ فورًا يا سيدى .

استدار المفتش بنظرة ظافرة إلى (مروة) ، التى قالت بمنتهى الحدة :

ـ عظيم .. وماذا عن ابنتى المفقودة .

وتضاعف غضب المفتش الأمريكى أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

أشعل الأنيق سيجارة غالية الثمن ، ونفث دخانها فى بطء ، فى هواء تلك الحجرة الصغيرة ، على نحو جعل (فريدة) تسعل ، وتقول فى شىء من الحنق :

ـ هل يمكنك أن تتوقف عن التدخين ؟! هذا يزعجنى بشدة .

قال الأنيق فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

ثم مال نحوها ، ونفث الدخان فى وجهها مباشرة ، قبل أن يضيف ، فى سخرية لاذعة :

ـ لماذا لا يزعجنى أنا إذن ؟!

سعلت (فريدة) بشدة ، وهى تحاول إبعاد وجهها عن مسار الدخان ، الذى امتزج برائحة فمه ، فزمجر الأصلع فى غلظة ، قائلاً :

ـ اصمتى يا فتاة ، وإلا قطعت لسانك هذا .

رمقته (فريدة) بنظرة مقت صامتة ، فضحكت الشقراء ، قائلة ، وهى تلوّح بيدها :

ـ يا لك من وقح ! من الواضح أنك لا تجيد التعامل مع أبناء الطبقة الراقية .

زمجر الأصلع مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ، فلم أعمل يومًا خادمًا فى منازلهم ، كما فعلت أنت .

انعقد حاجباها فى غضب ، وقالت فى حدة :

ـ وقح !

أشار إليهما الأنيق بالصمت ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلا بلهجة آمرة صارمة :

ـ صمتًا .. هناك اتصال ، من الفريق الاحتياطى .

كان رنين هاتفه المحمول خافتـًا ، إلى حد لم ينتبه له أحدهما ، إلا أنه رفعه إلى أذنه ، فى حركة سريعة ، قائلاً :

ـ ما الجديد ؟!

انعقد حاجباه ، على نحو يوحى بالاهتمام الشديد ، وهو يستمع إلى محدثه ، قبل أن يقول :

ـ كلاً .. اتركوه يقترب .. هذا جزء من الخطة .

أنهى المحادثة ، فسألته الشقراء فى اهتمام ، حمل لمحة من القلق :

ـ عمن يتحدثون ؟!

استرخى الأنيق فى مقعده ، وحمل وجهه ابتسامة كبيرة واثقة ، وهو يقول :

ـ عن رجلنا .

ثم مال نحوها ، مضيفًا فى جذل :

ـ ذلك السائق .

وانعقد حاجباها ..

بشدة ..

★ ★ ★

٧ ـ مـن ؟!

« أبى .. ألن تبقى معنا ؟! »

تردَّدت العبارة مرة أخرى ، فى رأس (أحمد) ، وارتسمت فى أعمق أعماق قلبه صورة طفلة جميلة ، لم تتجاوز بعد الخامسة من عمرها ، وابتسامتها المشرقة تلوح له ، مع كفها الصغيرة الرقيقة ، عبر نافذة سيارة بسيطة ، وخلفها ثغر أمها الباسم ، و ....

ودوى انفجار ..

دوى فى أعمق أحزان ولواذع قلبه ، حتى إنه أغلق عينيه فى قوة ، وحاول أن يمنع شفتيه من الارتجاف ، وهو يستعيد ذكرى تلك اللحظة الرهيبة ، التى غيرت مسار حياته كلها ..

وبقوة ، انتفض جسده ..

انتفض ، كما لو أنه ينفض كل أحزانه ، وآلامه ، ولواذعه ، وعذاباته ..

ثم عادت ملامحه تكتسى بتلك الصرامة الشديدة ..

صرامة رجل فقد جزءًا من كيانه ..

بل من حياته كلها ..

وعبر الأغصان المتشابكة ، راح يشق طريقه ، نحو ذلك الممر الجانبى ، الذى لمحه بين الأشجار ، قبل أن يتعمد إسقاط سيارته ..

كان هناك جرح فى ركن جبهته ، وآخر فى فخذه ، يبدو واضحًا من خلف جزء ممزق من سراويله ..

وكانت الآلام تعربد فى عشرة مواضع من جسده على الأقل ..

إلا أنه لم يتوقف لحظة ، حتى للشعور بكل هذا ..

فكل ما جال بخاطره ، هو (فريدة) ..

(فريدة) الصغيرة ، التى اختطفها مجهولون ، و ....

وفجأة ، توقف فى موضعه ..

ووثبت إلى ذهنه نقطة ..

ثم ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وعاد جسده ينتفض ..

هناك خطأ ما ..

خطأ ما كان ينبغى لمثله أن يقع فيه ..

خطأ يحتاج منه إلى إعادة كل حساباته ..

وربما طريقه أيضًا ..

ولنصف دقيقة كاملة ، توقف يعيد حساباته ، وبدا جامدًا تمامًا فى مكانه ، كما لو أن خلاياه كلها قد جنّدت لهدف واحد ..

وقرار واحد ..

ثم فجأة ، انتفض جسده انتفاضة أخرى ..

ولم يكن السبب داخليًا هذه المرة ..

بل خارجيًا ..

كان صوت تحطم غصن جاف ، على مسافة أمتار قليلة منه ..

صوت جعل انتباهه كله يعود دفعة واحدة ، بتلك الانتفاضة المباغتة ، ليلتفت خلفه فى سرعة ..

وارتطم بصره بفوهتى بندقيتين قويتين ، مصوبتين إلى رأسه مباشرة ، وخلفهما وجها رجلى الشرطة صارمين ..

هازمين ..

ومتحفزين لإطلاق النار ..

فورًا ..

★ ★ ★

« لم أفهم هذا ؟! »

ألقت الشقراء السؤال ، فى حيرة عصبية ، وهى تشعل سيجارتها ، وتنفث دخانها فى قوة ، فمط الأصلع شفتيه ، وقال فى غلظة :

ـ ومتى أمكنك فهم أى شىء ؟!

رمته بنظرة مقت ، وهى تقلب شفتيها امتعاضًا ، قبل أن تعود ببصرها إلى الأنيق ، الذى هزّ كتفيه ، متسائلاً فى هدوء :

ـ ما الذى لم تفهميه بالضبط ؟!

مالت نحوه ، متسائلة :

ـ ذلك السائق .

انتبهت (فريدة) بحواسها كلها ، عندما ابتسم الأنيق ، قائلاً :

ـ ماذا عنه ؟!

سألته ، فى لهفة وفضول :

ـ هل يعمل لحسابنا حقًا ؟!

لم تكد تتم سؤالها ، حتى انفجر الأنيق ضاحكًا ، على نحو جعلها تتراجع بحركة حادة ، وجعل قلب (فريدة) ينتفض بين ضلوعها فى قوة ..

وعنف ..

وألم ..

فعلى الرغم من مولدها على أرض الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أنها ، فى أعمق أعماقها ، كانت تشعر بمصريتها ..

وربما حتى النخاع ..

أمها كانت دومًا تحدثها عن (مصر) ، باعتبارها وطنهم الأم ، ووطن أجدادها وأقاربها ..

وفى كل زيارة إلى (مصر) ، كانت تشعر بمتعة ، لم تشعر بمثلها قط فى (أمريكا) ، على الرغم من الرفاهية الشديدة ، التى تحيا وأسرتها فيها ..

فكل شىء فى (مصر) كان له طعم آخر ..

كل شىء كان له سمرة النيل ..

وشذى الحقول ..

وعطر الحب ..

ودفء القلوب والأفئدة ..

فى (مصر) كانت تلتقى بأعمامها ، وأخوالها ، وأبناء عمومتها وبنات خالاتها ..

وكانت هذه دومًا أسعد أيامها ..

هناك فقط تنام قريرة العين ، دافئة القلب ، محاطة بكل حنان وحب ورعاية الدنيا ..

هناك فى (مصر) ..

حتى اللغة العربية ، كانت أعذب لغة تسمعها أذناها ، وأجمل موسيقا تسرى فى كيانها كله ..

وهذا ما وجدته لدى (أحمد) ..

وجدت كل ما لا تجده فى أى أمريكى ..

أو أى أجنبى ..

وجدت دفء (مصر) ..

وروح (مصر) ..

وشهامة (مصر) ..

وعظمة (مصر) ..

لهذا أصبح بالنسبة لها صديقًا ، وأبًا ، ومثلاً أعلى ، فى حياتها كلها ..

ولن تحتمل لحظة ، لو أنه كان يخدعها ..

لن تحتمل هذا أبدًا ..

بل ، وربما تفضل الموت على مجرد الشك فيه ..

وربما لهذا انتبهت كل حواسها ، مع ضحكة الأنيق ، وانتظرت كل خلية منها جوابه بلهفة ..

ولقد استغرقت ضحكة الأنيق ثوانى قليلة ، بدت لها أشبه بدهر كامل ، قبل أن يعتدل ، ويقول للشقراء فى سخرية مستفزة :

ـ أراهنك أنه هو نفسه لا يدرك هذا .

بدا الجواب غامضًا بالنسبة للشقراء و(فريدة) معه ، إلا أن الأخيرة بدت أكثر اهتمامًا بسماع الجواب ، عندما سألته الأولى :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

مال الأنيق نحوها قائلاً :

ـ إنه يتتبع أثرنا .. أليس كذلك ؟!

حمل صوت الشقراء كل حيرتها ، وهى تقول :

ـ بلى .. ولكننا كنا نعلم أنه سيفعل هذا .

مال نحوها أكثر ، مجيبًا ، والضحكة تتراقص على شفتيه :

ـ بالضبط .

نطقها ، وتفجَّرت ضحكته أكثر ..

وانعقد حاجبا الأصلع ، وهو يعبث بمسدسه فى عصبية ..

أما (فريدة) والشقراء ، فلم يفهما ما الذى تعنيه ضحكته تلك ..

لم يفهما أبدًا ..

* * *

الوقت يمضى فى سرعة ، والموقف يتعقَّد فى كل لحظة ، ويزداد تشابكًا مع كل خطوة ..

وأعصاب (مروة) و(أيمن) لم تعد تحتمل ..

فبعد ساعة واحدة ستغرب الشمس ، ويهبط الظلام ، ويهبط معه الخوف واليأس والعذاب ..

وربما ينهار الأمل فى عودة (فريدة) أيضًا ..

« سأنفذ كل مطالبهم .. »

نطق (أيمن) بالعبارة ، فى حزم امتزج بعصبية بالغة ، جعلت المفتش يلتفت إليه فى صرامة ، قائلاً :

ـ أية مطالب ؟!

أجابه (أيمن) بكل عصبية :

ـ سأترك المشروع .. أليس هذا ما ينشدونه ؟!

هزّ المفتش كتفيه ، وهو يقول بنفس الصرامة :

- ومن أدراك ؟! إنهم لم يحاولوا حتى الاتصال ، منذ اختطفوا ابنتك .

قال (أيمن) فى حدة :

- لأنهم واثقون من معرفتى لما يريدون .

أشار المفتش بسبّابته ، قائلاً فى غلظة :

- هذا يتنافى مع أبسط القواعد ، التى تعلمناها فى الـ ...

قاطعه مساعده ، عندما اندفع داخل المكان ، فى لهفة واضحة ، وانحنى يهمس فى أذنه بكلمات سريعة ، وهو يشير إلى الباب ..

واستدار المفتش أيضًا بدهشة بالغة ..

فعند الباب ، كان يقف زائر غير متوقع ..

بل ولا يمكن توقعه ..

على الإطلاق ..

* * *

٨ ـ سياسة ..

« لم يدر (أحمد) أبدًا ، كيف حدث هذا ! »

كيف لم يشعر بتسلّل رجلين خلفه ، على الرغم من خبرته الواسعة والطويلة فى مجاله ؟!

كيف ؟!

لقد فقد الكثير من مهاراته حتمًا ..

تمامًا كما تؤكد القاعدة ، التى تعلمها منذ حداثته ..

القدرة المستعملة تنمو ، والقدرة المهملة تضمر ..

ولقد أهمل قدراته منذ زمن طويل ..

منذ ذلك الحادث الرهيب ..

الحادث الذى غير مسار حياته كله ..

ومرة أخرى ، وهو يقف بين الأشجار ، متطلعًا إلى الفوهتين القاتلتين ، استعادت ذاكرته دوى الانفجار ..

استعادت ذاكرته دوى الانفجار ..

ومشهده ..

و ...

ودون حتى أن يدرى ، وجد نفسه ينقضّ على رجلى الشرطة ، اللذين تفصلهما عنه ثلاثة أمتار كاملة ..

وكأن ذلك الانفجار قد دوى فى عروقه ..

وخلاياه ..

وإرادته ..

وطاقته كلها ..

كل ما أدركه عقله ، هو أنه لن يسمح لأية قوة فى الأرض ، أن تحول بينه وبين الوصول إلى (فريدة) ..

واستعادتها ..

لذا ، فهو لم يذكر أبدًا ما الذى فعله ، ولا كيف قطع تلك الأمتار الثلاثة ، التى تفصله عن رجلى الشرطة ..

كل ما يذكره هو حالة من الغضب ..

والعنف ..

والإصرار ..

مع ألم فى قبضته اليمنى ..

وبعدها وجد نفسه واقفًا وسط الأشجار نفسها ، وحوله رجلا الشرطة فاقدى الوعى ، وبندقيتاهما ملقاتان بعيدًا ..

وكان هناك وقع أقدام أخرى تعدو ، مقتربة من موضعه ..

لذا ، كان من الضرورى أن يبتعد ..

وبأقصى سرعة ..

وبحركة غريزية ، انحنى يلتقط واحدة من البندقيتين ، قبل أن يبتعد ..

ولكن يده توقفت ، قبل أن يبلغها ..

وتجمّدت ..

ثم تراجعت ..

لا أسلحة نارية ..

مهما كانت الأسباب ..

هذا ما صرخ به عقله ، وما جعله يترك البندقيتين فى موضعهما ، ثم يبتعد بخفة عن المكان ، ليختفى جسده بين الأغصان والأشجار ، ووسط الظلام ، الذى راح يتسلل ، ليضاعف من صعوبة الموقف وتعقيده ..

ألف مرة ..

* * *

بكل دهشة الدنيا ، حدّق المفتش الأمريكى فى ذلك القادم ، الذى بدا وقورًا رصينًا ، على الرغم من توتره الملحوظ ، وهو يقول :

ـ ذلك الرجل ، الذى تذيعون صورته ، عبر كل محطات التلفاز ، لا يمكن أن يكون إرهابيًا .

تطلّعت (مروة) مع زوجها ، فى فضول قلق إلى الرجل ، فى حين سأله المفتش بكل دهشته :

ـ أأنت السفير المصرى حقًا ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى هتفت (مـروة) ، بلهجـة من تذكّر أمرًا شديد الأهمية :

ـ آه .. السفير .

أما (أيمن) ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما لحظة ، ثم اندفع نحو السفير ، هاتفًا فى حرارة :

ـ سيادة السفير .. كرم كبير منك أن ..

قاطعه المفتش ، وهو يسأل السفير ، فى شىء من الخشونة :

ـ وكيف يمكنك الجزم ، بأنه ليس إرهابيًا ؟!

اندفعت (مروة) ، تقول فى مقت :

ـ أى أحمق ، يمكنه أن يتبيّن هذا .

استدار إليها المفتش بنظرة نارية ، فـى نفـس اللحظـة ، التـى أجاب فيها السفير فى توتر :

ـ أنا واثق من هذا .

سأله المفتش فى حدة :

ـ لماذا ؟! ثم ما صلتك بالأمر ؟! وهل أتيت بصفة شـخصية أم رسمية ؟!

انعقد حاجبا السفير ، وهو يجيب :

ـ قلت إننى واثق من هذا .

صاح المفتش فى غضب :

ـ وهذا لا يكفينى .

تطلّع السفير المصـرى إلى عينيـه مباشرة ، وهو يقول فـى صرامة :

ـ لو أنك صاحب الكلمة العليا فى الأمر .

تراجع المفتش بحركة حادة ، وهو ينظر إليه فى غضب شـديد ، قبل أن يعقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً فى تحد :

ـ أهذا نوع من التهديد ؟!

قال السفير بنفس الصرامة :

ـ لو أنك اعتبرته كذلك .

تضاعف غضب المفتش ، وهو يقول فى حدة :

ـ هذا يتوقف علـى إجابـة السـؤال الثـانى ؟! أأنـت هنـا بصفـة شخصية ، أم ..

وهنا فقط ، بدا التردُد على وجـه السفير ، وكأنمـا يعجز عن إجابة السؤال ، فاندفعت (مروة) تسأله فى لهفة :

ـ من هو (أحمد وصفى) بالضبط ؟!

ألقت سؤالها بالعربيـة ، إلا أن ذرة واحدة من الدهشـة ، لـم ترتسم على وجه السفير ، مما جعل (أيمن) واثقًا من أنـه يعرف الكثير عنهم ، وعن ذلك السائق الغامض ، فاشرأب بحواسه كلها لسماع الجواب ، إلا أن السفير اكتفى بنظرة خاويـة ، تجـاهل بعدها السؤال تمامًا ، وهو يواجه المفتش ، قائلاً :

ـ وماذا لو أننى هنا بصفة شخصية ؟!

تألقت عينا المفتش ، وكأنما ربح جائزة كبرى ، وهو يتراجع مرة أخرى ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة ، يؤسفنى أن أتجاهل وجودك هنـا تمامًـا .. من الناحية الأمنية بالطبع .

ثم التفت إلى مساعده ، مستطردًا فى صرامة قاسية متحدية :

ـ أجر اتصالك مرة أخرى بفرق المطـاردة ، وأخبرهم أنـه قد تبين لنا مدى خطورة ذلك الإرهابى المصرى ، لذا ..

صمت لحظة ، تطلَّع خلالها إلى السفير المصرى فـى تشـفٍّ ، قبل أن يضيف فى شراسة عجيبة :

ـ فليطلقوا النار عليه ، فور رؤيته ..

انعقد حاجبا السفير فى شدة ، ووثب التوتر إلـى كل ذرة من كيانـه ، فـى حين اتسـعت عينـا (أيمـن) فـى دهشـة مستنكرة ، وغمغمت (مروة) فى خفوت :

ـ مريض .

استدار إليهـا المفتش بعينيـن متسائلتين ، فأضـافت فى حدة ، بصوت ارتفع مع غضبها :

ـ أنت رجل مريض .

كانت تتوقَّع منه ثورة عارمة ، إلا أنه ، وبدلاً من هذا ، ابتسم فى سخرية ، وقال :

ـ ربما .. ولكننى أعرف كيف أشفى مرضى هذا يا سيِّدى .

ثم أشار إلى مساعده مضيفًا ، وقد استعاد صوته تلك النبرة الشرسة :

ـ نفـذ .

اعتدل المساعد ، وهو يقول فى حزم :

ـ فورًا يا سيِّدى .

ومع اندفاعه لتنفيذ الأمر ، شدّ السفير المصرى قامته ، وقـال فى صرامة قاسية :

ـ من الواضح أنك تجهل الكثير عن عالم السياسة يا هذا .

اتسعت ابتسامة ساخرة على شفتى المفتش ، وهو يقول :

ـ بل أنت الذى يجهل كل شىء ، عن عالم اليوم .. يا سيادة السفير .

قالها ، وأطلق ضحكـة سـاخرة طويلـة ، اسـتفزت مشـاعر الجميع بلا استثناء ..

ضحكة كانت تؤكّد أن الساعات القليلة القادمة ستكون وحشية شرسة ..

إلى أقصى حد ..

★ ★ ★

٩ـ التفـــاف ..

« (أحمد) ليس غبيًا .. »

نطقت (فريدة) العبارة ، بلهجتها الطفولية الغاضبة ، فالتفتت إليها الشقراء فى دهشة ، وتحفز الأصلع فى توتر ، فى حين ابتسم الأنيق فى برود ، ونفث دخان سيجارته ، قائلاً :

ـ حقًا ؟!

أجابته (فريدة) بحنقها كله :

ـ أنا واثقة من أنه لن يقع فيما أعددتموه له .

هزّ الأنيق كتفيه ، قائلاً فى لا مبالاة :

ـ سنرى .

انعقد حاجبا الشقراء ، وهى تقول فى قلق :

ـ تلك الفتاة أذكى مما كنت أتصوّر ..

زمجر الأصلع ، قائلاً فى خشونة :

ـ لن يصنع هذا فارقًا ..

امتقع وجه (فريدة) ، عند سماعها هذه العبارة ، فى حين قال الأنيق ، بنفس اللامبالاة ، وهو يواصل نفث دخان سيجارته :

ـ إنها مجرد طفلة ، و ...

قاطعته الشقراء فى عصبية ، وهى تتطلّع إلى (فريدة) فى إمعان :

ـ لقد أدركت نواياتنا ..

التفت الأصلع والأنيق إلى (فريدة) ، فى حركة حادة ، فتمتمت فى عصبية تتناسب مع طفولتها :

ـ ستقتلوننى فى النهاية .. أليس كذلك ؟!

بدا توتر شديد على وجه الأصلع ، فى حين مال الأنيق نحو (فريدة) ، متسائلاً ، فى شىء من الصرامة :

ـ ومن وضع فى رأسك الصغير هذه الفكرة الحمقاء ؟!

أجابته فى سرعة مضطربة :

ـ السينما .

تساءل فى حيرة صارمة :

ـ ماذا ؟!

أكملت ، وصوتها يشارك عينيها البكاء :

ـ فى كل أفلام السينما ، لا يتعامل المجرمون مع الضحية بوجوه مكشوفة ، إلا لو قرّروا قتلها ، حتى لا تكشف هوياتهم فيما بعد .

زمجر الأصلع مرة أخرى فى وحشية ، وتراجعت الشقراء بحركة حادة ، وهى تغمغم فى مقت :

ـ ابنة أبيها .

أما الأنيق ، فقد اعتدل فى مقعده فى بطء ، وألقى سيجارته أرضًا ، وسحقها بقدمه فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ طفلة ماهرة بحق .

عاد الأصلع يزمجر ، وهو يقول فى شراسة :

ـ لم يعد هناك مبرر للانتظار ، ما دامت قد كشفت الأمر .. فلنقتلها فورًا .

قرن قوله هذا بحركة عصبية من مسدسه ، وكأنه يهم بإطلاقه على رأس (فريدة) بالفعل ، فشهقت هى فى ذعر ، فى حين أمسك الأنيق معصم الأصلع فى صرامة ، قائلاً :

ـ ليس بعد .

ثم رمق (فريدة) بنظرة قاسية ، مستطردًا :

ـ مازلنا بحاجة إليها .

قال الأصلع فى حدة عصبية :

ـ لو أنك تريدها أن تتحدث إلى والدها ، فافعل الآن .

هتفت الشقراء فى حدة :

ـ لا .. ليس الآن .

استدار إليها الأصلع بنظرة شرسة ، فتابعت بنفس الحدة :

ـ (أيمن) سينهار تمامًا مع الوقت ، وسيجيب كل مطالبنا ، إذا ما انتظرنا يومًا إضافيًا ، قبل أن نجرى اتصالنا به .

أدارت (فريدة) ، عينيها إليها فى حركة حادة ، قائلة :

ـ هل تعرفين أبى ؟!

ارتسمت ابتسامة عصبية شرسة ، على شفتى الشقراء ، وهى تميل نحوها ، قائلة :

ـ من قبل أن تعرفيه أنت يا صغيرتى .

سألتها (فريدة) فى عصبية :

ـ وكيف هذا ؟!

وهنا زمجر الأنيق هذه المرة ، وهـو يقول فى غلظة ، جعلتـه أشبه بالأصلع :

ـ من أعطاك حق إلقاء الأسئلة ؟!

قال الأصلع فى عصبية :

ـ دعنا نجرى الاتصالات الآن .

هتفت به الشقراء :

ـ إياك أن تفعل .

صرخ الأنيق فيهما معًا :

ـ دعانى أتخذ قراراتى دون ضغوط .

مطَّ الأصلع شفتيه فى حنق ، وعقدت الشقراء حاجبيها فى تفكير ، فى حين تراجع الأنيق فى مقعده ، وأشعل سيجارة جديدة ، راح ينفث دخانها فى بطء ، وهو يفكر فى عمق وتركيز ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ سنجرى الاتصال .

وسقط قلب (فريدة) بين قدميها ، الذى تسارعت نبضاته بمنتهى العنف ..

* * *

انتفض قلب (مروة) ، مع ارتفاع رنين الهاتف المفاجئ ، وشعرت بأطرافها كلها تتجمَّد ، عندما أشار المفتش إلى زوجها ، برفع سمَّاعته ، وفريق التتبع يضغط أزرار التوافق الوقتى ؛ لتحديد مصدر المكالمة ..

وبأصابع مرتجفة ، التقط (أيمن) سمَّاعة الهاتف ، وقال فى لهفة ، لم يستطع كتمانها :

ـ من المتحدِّث ؟!

أتاه صوت الأنيق ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اسمعنى جيدًا يا رجل ، فلن أكرر كلامى .. نريدك أن تنسحب من مشروع المطارات ، وأن تعلن هذا فى مؤتمر رسمى ، خلال ساعتين فحسب ، وإلا فلن ترى ابنتك على قيد الحياة مرة ثانية .

انعقد حاجبا المفتش فـى شدة ، وهو ينصت إلـى المحادثـة ، وارتجفت شفتا (مروة) ، وهى تتطلع إلى زوجها فـى ضراعـة ، وتوسُّل ، فى حين قـال (أيمن) ، وهو يبذل كل مـا بوسعه ؛ ليبدو قويًا متماسكًا :

ـ وكيف أتأكَّد من أن ابنتى بخير ..

أجابه الأنيق بنفس الصرامة :

ـ سأجعلك تستمع إليها ، لمرة واحدة فقط .

قالها ، ودفع سمَّاعة الهاتف نحـو (فريـدة) ، قـائلاً وقـد اكتسبت صرامته وحشية هذه المرة :

ـ تحدثى إلى والدك .

ازدردت (فريدة) لعابها ، وأدنت شفتيها من سمَّاعة الهـاتف قبل أن تصرخ فجأة :

ـ لا تستجب لهم يـا أبـى .. سـيقتلوننى فـى كـل الأحوال .. لقد ..

قاطعها الأنيق بصفعة قاسية ، وهو ينهى المحادثة فى عنف ، فصرخ (أيمن) بكل لوعته :

ـ لا يا (فريدة) .. لا ..

ثم حدَّق فى سمَّاعة الهـاتف فـى ذهول ، فـى حين تعلَّقت بـه (مروة) ، هاتفة بكل ضراعة ولوعة أم ، يبكى قلبها بدموع من دم :

ـ افعل ما يريدون .. نفذ مطالبهم .. من أجل (فريدة) .

هتف المفتش معترضًا :

ـ خطأ يـا سيِّدتى .. تنفيذ مطـالب الإرهـابيين يضـاعف مـن خطورتهم ، و ...

قاطعته صارخة :

ـ إنها ابنتنا .

ثم عادت تقول لزوجها فى ضراعة :

ـ نفذ ما طلبوه منك .

ولم يكن (أيمن) بحاجة إلـى ضراعتهـا هذه ، ليقول بمنتهى الحزم :

ـ سأفعل .

مد يده ، ليلتقط سماعة الهاتف ، ولكن المفتـش اسـتوقفه فـى صرامة ، وهو يسأل خبير التتبع :

ـ هل حددتم مصدر المكالمة ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى أسف :

ـ المحادثة استغرقت ثلاثين ثانية فحسب ، وأقل فترة نحتاج إليها ؛ لتعقب المحادثة ، هى ..

قاطعه (أيمن) فى صرامة ، وهو يلتقط سمَّاعه الهاتف بالفعل :

ـ سأعقد المؤتمر الصحفى .. فورًا ..

وتضاعف غضب المفتش ..

ألف مرة ..

★ ★ ★

« أنت تستحقين الموت .. » ..

نطق الأنيق العبارة فى صرامة ، وهو يرمق (فريدة) بنظرة نارية ملتهبة ، فقالت فى عصبية :

ـ ستقتلوننى على أية حال .

أشار الأنيق إلى الأصلع ، قائلاً :

ـ أظنك على حق .

ارتجفت (فريدة) فى رعب ، عندما شاهدت فوهة مسدس الأصلع ، مصوَّبة إلى رأسها ، وهتفت بكل رعبها :

ـ (أحمد) سينقذنى .

ابتسم الأنيق ، وقال فى سخرية :

ـ السائق ؟! حقًا ؟!

وأشار إلى الأصلع مرة أخرى ، فجذب هذا الأخير إبرة مسدسه ، وقال فى وحشية :

ـ وداعًا يا صغيرتى .

وضغط الزناد .

★ ★ ★

١٠ ـ هجـــوم ..

جاء الاقتحام عنيفًا ومباغتًا ، على نحـو لـم يتوقعه أحد على الإطلاق .. حتى (فريدة) نفسها ..

لقد رأت مسدس الأصلع مصـوبًا إلى رأسـها ، وأدركت أنهـا نهايتهـا لا محالـة ، فـأغلقت عينيهـا ، وصرخت بـأن (أحمـد) سينقذها ..

ثم سمعت ذلك الصوت العنيف ..

وانتفض جسدها الصغير فى عنف ..

ولوهلة ، تصورت أن ما سمعته هو صوت الرصاصـة ، التـى أطلقها الأصلع نحوها ، إلا أنهـا لـم تشـعر بـأى ألـم ، فـى نفـس الوقت الـذى استقبلت فيـه أذناهـا ضـجة وجلبة ، وجعلتاها تفتـح عينيها ، وتحدّق فيما أمامها ، فى مزيج من الفرح والذهول ..

فأمامهـا مباشـرة ، كـانت النـافذة محطمـة تمامًـا ، وزجاجهـا متناثرة فى داخل الحجرة ..

وكان (أحمد) هناك ..

كان يتحرك فى سرعة ونشاط غير عاديين ، وهو يقبض علـى معصـم الأصلـع ، ويرفـع فوهـة مسدسـه عاليًـا ، ثـم يلكمـه فـى أسنانه وفكه وأنفه مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ومع اللكمات السريعة القوية ، تفجرت الدماء من وجه الأصلـع فى حين وثب الأنيق وهو يستلّ مسدسه ..

ولكن (أحمد) كان أسرع منه بكثير ، وهو ينحنى فـى خفـة ، ثم ينقض على الأنيق ، ويركل المسدس من يده ، قبل أن يركله هـو فى صدره ، ليدفعـه إلى الخلف فى عنف ، جعله يرتطم بالجدار ، ويسقط أرضًا ، وهو يهتف فى عصبية :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن تصل إلينا بهذه السهولة ..

ضمّ (أحمد) قبضته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لم يكن هذا سهلاً أبدًا .

هتفت (فريدة) بكل سعادتها :

ـ (أحمد) .. كنت أعلم أنك ستأتى .

منحها (أحمد) ابتسامة هادئة ، لا تتناسب قط مـع الموقـف ، ولا مع صوته الصارم ، وهو يكمل :

ـ لقد تصوّرتم أنكم أذكياء ، عندما استعنتم بفريق إضافى ، له نفس سماتكم ، ويصطحب طفلة فى عمر (فريدة) ، حتى ننشغل فى تتبعه ، فنفقد أثركم تمامًا ، ولكن الواقع أن ذلك الفريق الإضـافى

كان يتحرك بسذاجة شديدة ، لا تليق بمحترفين ، مما جعلنى أعود لتعقب الأثر ، من منظور مختلف ، مما أوصلنى إليكم .

قال الأنيق فى عصبية ، وهو ينهض واقفًا :

ـ حتى هذا ليس سهلاً .

أجابه (أحمد) فى صرامة :

ـ وليس مستحيلاً أيضًا .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا :

ـ بالنسبة لمحترف .

غمغمت الشقراء فى توتر شديد :

ـ محترف ؟...

وتساءلت (فريدة) فى دهشة :

ـ أأنت محترف يا (أحمد) ؟!

تجاهل (أحمد) سؤال (فريدة) تمامًا ، فى حين قال الأنيق فى عصبية ، وهو يتطلّع إلى الأصلع ، الذى توسّد الأرض فاقد الوعى .

ـ لقد كشفنا أمرك منذ راقبنا منزل (أيمن) .. أحد رجالنا واجهك فى الماضى ، وتعرّفك فور رؤيتك .. وكنا نعلم أنك ستتعقبنا .

غمغم (أحمد) فى حزم :

ـ ولقد فعلت .

لوّح الأنيق بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ لا تتصوّر أنك قد ربحت المعركة .. إنها مجرد جولة .. نحن لا ننهزم بسهولة .. وذلك المصرى ، لن يحصل على عقد دفاعى أمريكى أبدًا .. هل تفهم ؟! أبدًا .

قال (أحمد) فى صرامة :

ـ لا يمكنك الجزم .

فجأة ، سحب الأنيق مسدسًا احتياطيًا من الجيب الخلفى لسراويله ، وهو يصرخ :

ـ ربما أمكننى هذا .

كانت حركة مباغتة سريعة ، إلا أن (أحمد) بدا وكأنه كان يتوقعها على نحو ما ، عندما وثب جانبًا ، فى اللحظة المناسبة امامًا ، ليتفادى الرصاصة ، قبل أن يقفز ليضرب الجدار بقدمه ، ثم يدور فى الهواء ، ويركل الأنيق فى صدره ووجهه ، فى آن واحد تقريبًا ..

ومرة أخرى ارتطم الأنيق بالجدار ، ثم سقط فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى سحبت فيها الشقراء مسدسًا صغيرًا ، وقفزت

تحيط عنق (فريدة) بذراعها ، وتلصق فوهة المسدس بصدغها ، هاتفة فى شراسة شديدة :

ـ سأقتلها .. أقسم أن أقتلها ، إن لم تتركنى أغادر المكان بسلام .

وانعقد حاجبا (أحمد) فى شدة ، أمام ذلك المشهد ..

واستعاد ذهنه مرة أخرى دوى الانفجار القديم ..

استعاده على نحو جعل صوته شديد الصرامة والغضب والقسوة ، وهو يقول :

ـ لو مسست شعرة واحدة من رأسها ، فسوف ..

قاطعته الشقراء ، صارخة :

ـ اصمت .. لم أعد أحتمل المزيد .. إننى أخسر هذه اللعبة منذ بدايتها .. أخسر كل جولة منها .

اعتدل (أحمد) ، وغمغم فى تساؤل حذر :

ـ كل جولة ؟!

صرخت الشقراء ، فى عصبية بالغة :

ـ نعم .. كل جولة .. خسرت ، عندما تصورت أننى قد تزوجت مهاجرًا مصريًا فاشلاً ، وطلبت الطلاق منه ، قبل أن يصبح رجل أعمال كبير .. كان يمكننى أن أفوز بكل هذا لو بقيت .

وزادت من ضغط ذراعها ، على عنق (فريدة) ، وهى تكمل فى مقت :

ـ كان يمكننى أن أصبح أم هذه الصغيرة .

هتفت (فريدة) .. مستنكرة فى ذعر :

ـ أنت ؟! أأنت زوجة أبى الأمريكية الأولى .

صاحت الشقراء فى مقت أكثر :

ـ نعم .. هو أنا أيتها الحقيرة .

ثم جذبت (فريدة) نحو الباب فى خشونة ، وهى تضيف ، فى لهجة أقرب إلى الجنون :

ـ ولن أخرج من اللعبة هذه المرة خالية الوفاض .. لابد وأن أربح هذه الجولة .

قال (أحمد) ، وهو يتابعها بمنتهى الحذر :

ـ لقد خسرتها بالفعل .

صرخت :

ـ ليس بعد .. أنا أعرف (أيمن) جيدًا .. سيدفع ثروته كلها ، لو اقتضى الأمر ، ليستعيد صغيرته .. يمكننى أن أربح عدة ملايين ، مقابل حياتها .

اكتسب صوت (أحمد) صرامة قاسية ، وهو يقول :

ـ لن أسمح لك بالخروج من هنا مع (فريدة) .

صرخت به :

ـ حاول أن تمنعنى .

قالتها ، وهى تجذب (فريـدة) ، فى قسوة أكثر ، نحو بـاب المكان ، و(فريدة) تجاهد لتخليص عنقها الصغير من ساعدها القوى ..

واستعاد (أحمد) دوى ذلك الانفجار ، فى أعمق أعماقه ..

استعاده مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

« هل ستخرج مرة أخرى يا أبى ؟! »

تردَّد فى ذهنه صوت ابنته الصغيرة ..

واستعاد ذهنه ابتسامة أمها ..

ثم دوى الانفجار ..

وأدرك فى هذه اللحظة ، أنه لن يسمح بتكرار ما حدث ..

مهما كانت الظروف ..

ومهما كان الثمن ..

ولكن الشقراء كانت شـديدة التوتر والتحفز ، والمسافة التى تفصله عنها كانت تتزايد ، كلما اقتربت من الباب ..

وأى هجوم مفاجئ ، قد يكون ثمنه حياة (فريدة) ..

وهذا ما لن يسمح به أبدًا .

أما الشقراء ، فكانت تدرك جيدًا ، أن بقاء (أحمد) على قيد الحياة ، يعنى كشف أمرها ..

وسقوطها حتمًا فى قبضة الشرطة ، إن عاجلاً أو آجلاً ..

لذا ، فقد كانت لديها خطة ..

فما أن أصبحت إلى جوار الباب تمامًا ، حتى صرخت بكل جنونها :

ـ خسرت أيها السائق ..

وبسرعة غير متوقعة ، أدارت فوهة مسدسها نحو (أحمد) ..

وأطلقت النار ..

وصرخت (فريدة) بكل رعب الدنيا ، عندما تناثرت الدماء على وجهها الصغير ..

وكان المشهد رهيبًا ..

للغاية .

* * *

١١ـ الختـــــام ..

فى سرعة مدهشة ، كما يحدث فى (أمريكا) بالتحديد ، اكتظت حديقة منزل (أيمن) بالصحفيين ، من مختلف وكالات الأنباء ، على نحو أحنق المفتش ، الذى قال فى غلظة :

ـ لاحظ أنك ستتحمل المسئولية كلها وحدك .

قال (أيمن) فى صرامة :

ـ فليكن .

وأضافت (مروة) فى غضب :

ـ إننا نحاول أن نفعل ، ما عجزتم أنتم عن فعله .

قال المفتش فى حنق :

ـ لم تمنحونا الفرصة لذلك .

هتفت بكل غضبها :

ـ حقًا ؟!

ثم تأبطت ذراع زوجها ؛ لترافقه إلى حيث سيعقد مؤتمره الصحفى ، فى نفس اللحظة التى توقفت فيها سيارة السفير المصرى ، وهبط هو منها بصحبة رجل أمريكى ، اندفع معه نحو المفتش ، وقال فى غضب شديد وصرامة آمرة ، توحى بأنه يحتل منصبًا رفيعًا :

ـ كيف تتخذ إجراءات مضادة للإرهاب ، دون الرجوع إلى رؤسائك ؟

أدرك المفتش على الفور هوية الغاضب ، فقال مرتبكًا :

ـ لقد تصرَّفت فى حدود ..

قاطعه الرجل فى حدة :

ـ فى حدود حماقتك وغضبك ، وسوء تقديرك للأمور .

انتفض المفتش ، وهو يهتف :

ـ سيِّدى .. إننى ..

قاطعه الرجل مرة أخرى :

ـ أنت موقوف من العمل ، ومحال للتحقيق ؛ لإثارة الفزع فى المجتمع الأمريكى ، دون روية ، أو مبرِّر كاف .

امتقع وجه المفتش بشدة ، فى حين ارتسمت ابتسامة هادئة ، على شفتى السفير المصرى ، والغاضب يستطرد :

ـ لقد أوقفنا الخبر فى الصحف ، وستبث أجهزة التلفاز كلها ما يؤكد أن الإنذار كاذب ، وأن ذلك الرجل ليس إرهابيًا بالتأكيد .

قال المفتش معترضًا :

ـ ومن أدراك أن ..

قاطعه الغاضب فى ثورة :

ـ أنا أعرف .. وأنت تجهل .

تراجع المفتش ، مغمغمًا :

ـ كنت أحاول تأدية واجبى .

قال الرجل بكل الغضب والصرامة :

ـ بل كنت تحاول إشباع روح عنصرية ناقمة فى أعماقك ، ومن سوء حظك أن اخترت هذا الهدف بالذات ، للتنفيس عن الحقد الأسود فى أعماقك .

سرى توتر شديد ، فى كيان المفتش ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لماذا ؟! من يكون هذا الرجل ؟!

انفرجت شفتا الغاضب ، وكأنما سيجيب السؤال ، عندما انبعث صوت (فريدة) من بعيد ، وهى تصيح فى فرحة :

ـ أمى .. أبى .. لقد عدت .

خفق قلبا (أيمن) و(مروة) بمنتهى العنف ، وهما يتطلعان مع الجميع ، إلى حيث جاءت الصيحة ، وصرخت (مروة) بكل فرحة الدنيا ، عندما شاهدت ابنتها تعدو نحوها فرحة و(أحمد) يسير خلفها فى هدوء ..

وفى لحظة واحدة ، تحولت حديقة المنزل إلى عاصفة من مصابيح التصوير المتألقة ، والصحفيون والمصورون يندفعون نحو (فريدة) ، التى تجاوزتهم جميعًا ، لتلقى نفسها بين ذراعى أمها وأبيها ، هاتفة بكل انفعال الدنيا :

ـ زوجتك السابقة واثنان من الأشرار اختطفونى ، و(أحمد) أنقذنى .. كانت هى تطلق النار عليه ، عندما وثب كما يحدث فى أفلام السينما ، والتقط مسدس الأصلع ، وأطلق عليها النار ، فى رأسها مباشرة .

ارتفع حاجبا السفير المصرى ، وهو يقول بمنتهى الدهشة :

ـ (أحمد) ؟! أطلق النار عليها ؟!

لم يدر أحدهم لماذا أدهشه الأمر إلى هذا الحد ، إلا أن (مروة) احتضنت ابنتها بكل السعادة ، وهى تهتف :

ـ كنت واثقة أنه سيفعلها .. كنت واثقة من أنه سيعيدك إلىَّ .

لوَّحت (فريدة) بذراعيها الصغيرتين ، أمام جموع الصحفيين ، وهى تهتف فى حماس مبهور :

ـ إنه بطل يا أمى .. بطل يشبه نجوم أفلام الحركة .. لقد هاجمهم وأفقدهم الوعى ، وقيدهم ، ثم أبلغ الشرطة ، قبل أن يعود بى إلى هنا .

مسح (أيمن) دموعه ، وهو يقول :

ـ نعم يا حبيبتى .. إنه بطل .. بطل حقيقى .

قالها ، وهو يرفع عينيه إلى حيث كان يقف (أحمد) ، ومعه استدار كل الصحفيين والمصورين ، وسطعت مصابيح تصويرهم ، و ...

ولكن (أحمد) لم يكن هناك ..

كان كعادته قد اختفى ..

اختفى تمامًا ..

* * *

استغرق الأمر ساعتين أخريين ، قبل أن ييأس الكل من العثور على السائق المختفى ، ويفرغ الصحفيون من أسئلتهم ، وينصرفوا إلى صحفهم ومحطاتهم التلفزيونية ، تاركين (أيمن) و(مروة) و(فريدة) ، بصحبة السفير المصرى ، واثنين من رجال الشرطة لحراسة المنزل ..

وبكل حرارة الدنيا ، احتضنت (مروة) ابنتها ، وهى تقول للسفير المصرى فى امتنان :

ـ كل ما أردته هو أن أشكره فحسب .. لست أرغب حتى فى معرفة هويته ، أو السبب الذى دعاه إلى العمل كسائق لدينا ، فمن المؤكَّد أن لديه مبرراته ، ولكنه اختفى .. ولست أدرى كيف أو لماذا !

ابتسم السفير ، مغمغمًا :

ـ كما قلت يا سيِّدتى .. من المؤكَّد أن لديه مبرراته .

ثم داعب شعر (فريدة) ، ومنحها ابتسامة أبوية ، قبل أن يضيف :

ـ أما بالنسبة للسيارة التى أتلفها ، فالسفارة المصرية مستعدة لـ ...

قاطعه (أيمن) بمنتهى الحزم :

ـ كلاَّ يا سيادة السفير .. مع احترامى لك ، لست أظننا سنتعامل مع السفارة المصرية مرة أخرى هنا .

التفتت إليه (مروة) و (فريدة) متسائلتين ، فى حين تساءل السفير فى قلق :

ـ ولماذا يا سيِّد (أيمن) ؟! المفترض أن ..

قاطعه (أيمن) قائلاً ، قبل أن يتم عبارته :

ـ لأننا سنعود إلى (مصر) .

صرخت (فريدة) ، وهى تصفق بكفيها فى حرارة ، فى حين هتفت مروة غير مصدقة :

ـ حقًّا يا (أيمن) .. حقًّا ؟!

ضم إليه زوجته وابنته ، وهو يقول فى حزم :

ـ نعم .. حقًا .. هذه التجربة جعلتنى أدرك أنه لا أمان لنا إلا فى وطننا .. لقد قررت التخلى عن مشروع مطارات الدفاع الأمريكية ، وأن أضع خبراتى وأموالى كلها ، فى خدمة وطنى الأم .. فى (مصر) .

تركهم السفير ، وهم يتبادلون قبلات السعادة ، ويخططون لرحلة العودة إلى الوطن ، واتجه إلى سيارته ، وأدار محركها ، ولم يكد يبتعد بها عن المنزل ، حتى قال دون أن يلتفت خلفه :

ـ يمكنك أن تسترخى الآن .

ومن المقعد الخلفى ، اعتدل (أحمد) جالسًا ، وقال :

ـ كان من الضرورى أن أرحل .

قال السفير ، وهو ينظر إلى وجهه الشاحب ، فى مرآة السيارة الداخلية :

ـ بالتأكيد ، ولكننى أعتقد أن هذه المرة ستختلف ، عن كل المرات السابقة .

أشاح (أحمد) بوجهه ؛ ليخفى انفعاله ، وهو يغمغم :

ـ ربما .

صمت السفير لحظة ، وهو يواصل قيادة سيارته ، قبل أن يتطلَّع مرة أخرى إلى المرآة ، قائلاً :

ـ بقاؤك هنا لم يعد ممكنًا ، بعد أن بثت كل وسائل الإعلام صورتك .. هذا سيجلب الكثير من أعدائك حتمًا ، ولكنك حطمت أحد الأسوار ، التى أقمتها حول نفسك ، عندما استخدمت سلاحًا ناريًّا ؛ لتنقذ الصغيرة .

تمتم (أحمد) ، وكأنما يشعر بالندم :

ـ كنت مضطرًّا .

ثم اعتدل فجأة ، مستطردًا فى حزم :

ـ هذا يكفى .

بدا لحظة وكأن السفير سيبدى اعتراضه ، على التوقف فى هذه البقعة النائية ، ولكن يبدو أنه كان يدرك جيدًا أن محدثه صعب المراس شديد العناد ؛ إذ أنه قد توقف عند جانب الطريق بالفعل ، والتفت إليه ، قائلاً :

ـ إلى أين ستذهب هذه المرة ؟!

أجابه (أحمد) ، وهو يغادر السيارة :

ـ سأعلمك ، عندما تستقر الأمور .

تنهَّد السفير ، وسأله :

ـ ألم تحدِّد بعد أية مهنة ستمتهن ، فى المرة القادمة ؟

صمت (أحمد) بضع لحظات مفكرًا ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ـ ستكون أول من يعلم .

ارتفع حاجبا السفير فى تأثر ، وهو يقول :

ـ أعلم أن من المستحيل إثناءك عن عزمك ، ولكن لابد وأن تعلم أننا نرحب بعودتك دومًا فى أية لحظة .

غمغم :

ـ أعلم هذا .

ثم لوَّح بيده ، مع ابتسامة أكثر شحوبًا ، واتجه نحو الأشجار الكثيفة على جانب الطريق ، واختفى وسط الظلام فى سرعة وخفة ..

ولثوان ، ظلَّ السفير متوقفًا فى مكانه ، وكأنما يرغب فى الاطمئنان عليه ، أو يتمنى لو عاد إلى السيارة ، وعدل عن رحلة هروبه الطويلة ، التى لا يجد هو شخصيًا مبررًا حتميًا لها ..

ثم أخيرًا ، لم يكن هناك بد من الانصراف ..

ومن مكمنه ، وسط الظلام والأشجار المتشابكة ، تابع (أحمد) رحيل السيارة وابتعادها ، وعقله يستعيد ذكرى تأبى أن تفارق ذهنه أبدًا ..

ذكرى انفجار ..

انفجار أفقده هويته ، وألقاه فى غياهب مستقبل غامض .. للغاية .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٤٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

	صفحة
ستة أسطر (قصة قصيرة)	٥
طب ليه (مذكرات) :	
١ – سؤال	١١
قطرة حب (قصة قصيرة)	١٧
فى السياسة (خواطر) :	
١ – بالفساد وحده	٢٧
المشهد الأخير (قصة كاملة)	٤٥
حبيبى (دراسة) :	
٧ – عندما يرحل الحب	٨١
قصة العدد :	
(الغامض)	٩٣
عزيزى القارئ	١٧٩

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر ٤٠٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم